كارلوس رويث ثافون



أمير الضباب

رواية لليافعين

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

كارلوس رويث ثافون

أمير الضباب

رواية لليافعين

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

كارلوس رويث ثافون، أديبٌ إسبانيّ ولد في مدينة برشلونة عام ١٩٦٤. بدأ مسيرته الأدبيّة عام ١٩٩٣ مع سلسلة روائيّة لليافعين استهلّها برواية **أمير الضباب**، لتتلوها **قصر منتصف الليل**، ثمّ **أضواء سبتمبر**، ورواية **مارينا**. وفي عام ٢٠٠١ أصدر رائعته **ظلّ الريح**، وما لبثت أن نالت اهتمامًا عالميًّا وصُنِّفَت بين الكتب الإسبانيّة الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وحصل ثافون بموجبها على ثناء وتقدير، وعدد كبير من الجوائز والتكريم. ثمّ تابع عمله على سلسلة **مقبرة الكتب المنسيّة**، وأصدر **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**. وافته المنية في لوس أنجلس عام ٢٠٢٠ جرّاء إصابته بمرض سرطان القولون. وإحياءً لذكراه، تعاون أصدقاؤه في دار النشر بلانيتا على جمع أعماله القصصيّة في كتاب واحد حمل عنوان **مدينة من بخار**.

معاوية عبد المجيد، مترجم سوريّ من مواليد دمشق عام ١٩٨٥، درس الأدب الإيطاليّ في جامعة سيينا في إيطاليا. علَّمَ اللغة الإيطاليّة في كليّة الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبيّة الأوروبيّة عن قسم الترجمة الأدبيّة من جامعة بولونيا الإيطاليّة وجامعة مولوز الفرنسيّة. صدرت له ترجمات عديدة في العالم العربيّ، مثل **ضمير السيّد زينو** لإيتالو سفيفو، **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** لأمبرتو إيكو، **الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس** لأوغو فوسكولو. حاز عدّة جوائز عالميّة لعمله في مجال الترجمة الأدبيّة. وعن منشورات الجمل صدرت له أعمال الأديب الإسبانيّ كارلوس رويث ثافون: **ظل الريح**، **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**، **مدينة من بخار**.

الجمل الطائر

سلسلة متخصصة بأدب الأطفال والناشئة تصدر عن

منشورات الجمل

كارلوس رويث ثافون: **أمير الضباب**، رواية لليافعين، الطبعة الأولى

ترجمة: معاوية عبد المجيد

ص.ب: ٧٣١١١ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

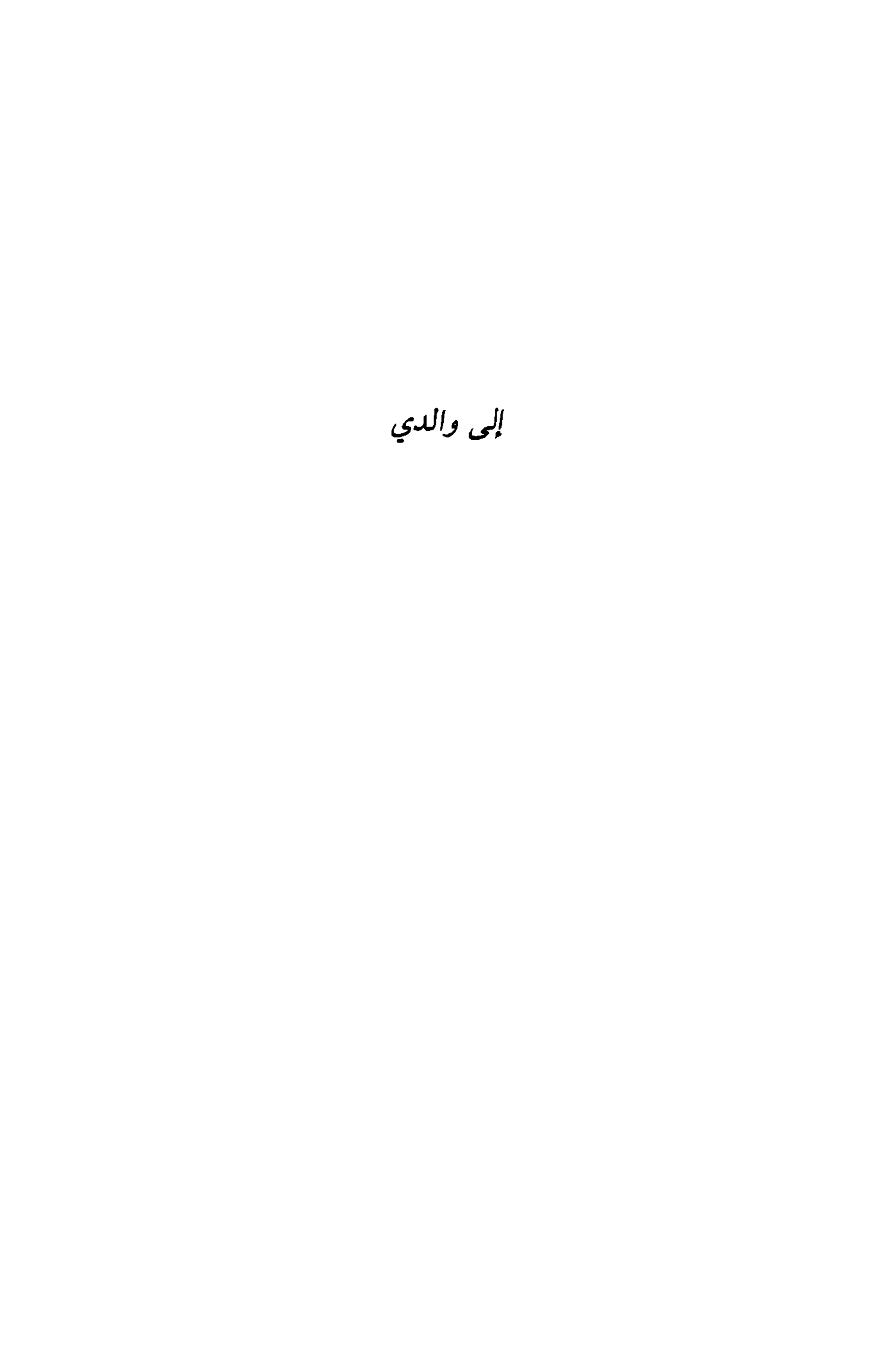
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



EL PRÍNCIPE DE LA NIEBLA



إلى والدي

كلمة المؤلِّف

صديقي القارئ،

لعلَّ أفضلَ نصيحةٍ أسديها إليك هي أن تتخطّى هذه الكلمة وتتّجه مباشرةً إلى مطلع الرواية، طالما أنّ كلَّ كتابٍ بوسعه التحدُّث عن نفسه ولا يحتاج إلى مقدّمات. ولكنْ، إذا كنتَ مهتمًّا بالتعرُّف على أصل الحكاية التي بين يديك، فإنّي أعدك بالإيجاز ببضعة أسطر ومِن ثَمَّ التنحّي عن طريقك.

إنَّ «أمير الضباب» هي الرواية الأولى التي نشرتُها، وكانت نقطة البداية لانغماسي التامّ في هذه المهنة الفريدة، أي مهنة الكتابة. كان عمري في تلك الفترة ستّةً وعشرين أو سبعةً وعشرين عامًا، وكنت أحسَبُها سنًّا متّقدمةً حينذاك؛ ونظرًا إلى عدم وجود ناشر، خطر في ذهني أن أقدِّم الرواية لمسابقةٍ في أدب اليافعين (المجال الذي كان بالنسبة إليّ مجهولًا بالمطلق)، وحالفني الحظّ بالفوز فيها.

والحقّ يقال، حين كنتُ صغيرًا لم أعتد قراءة رواياتٍ مصنَّفةٍ على أنّها «شبابيّة». كانت فكرتي عن روايات اليافعين مطابقةً

لفكرتي عن روايات القرّاء أيًّا كانت أعمارهم؛ أعتقد أنّ الحكاية لا تبالي بالفئات العمريّة. ولطالما تملّكني انطباعٌ بأنّ القرّاء الشباب قد يكونون أكثر حنكةً وبصيرةً من القرّاء الكبار، وإذا امتازوا بشيءٍ فهو تقديرهم القليل وتحيُّزهم الأقلّ. فإمّا أن يكسبهم الكاتبُ، وإمّا أنّهم لا يتوانون عن استبعاده. إنّهم جمهورٌ صعبٌ ومتطلّب، لكنّ أحكامهم تعجبني، وأظنّ أنّها عادلة. وفي حالة «أمير الضباب»، نظرًا إلى انعدام مراجِعَ أخرى، قرّرتُ أن أؤلّف الرواية التي كنتُ سأهوى قراءتها وأنا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، والتي سوف تظلّ تثير اهتمامي في الثالثة والعشرين، الثالثة والأربعين أو حتّى الثالثة والثمانين.

حالف الحظّ هذه الرواية، منذ إصدارها عام ١٩٩٣، بالحصول على الحفاوة عند القرّاء الشباب، والأصغر منهم أيضًا. إلّا أنّ ما فاتها حتّى الآن، هو طبعةٌ معتبرة تنصف قرّاءها والعملَ بحدّ ذاته. وبعد المآسي الكثيرة التي أثقلت على هذا الكتاب وكاتبه خلال خمسة عشر عامًا، والخلافات القضائيّة التي حالت دون انتشاره، ها هي الروايةُ اليومَ تصل إلى أيدي قرّائها، في العالم بأسره، بالطريقة التي كان ينبغي لها أن تصل إليهم منذ البدء.

وعندما يراجع الروائيُّ كتابًا ألّفه قبل سنواتٍ عديدة، يميل إلى الإفادة من بعض الحيل التي علّمتْه إيّاها الصنعة بغية إعادة بناء، أو إعادة كتابة، كلِّ شيء تقريبًا. غير أنّي في هذه الحالة ارتأيتُ أن يبقى العمل مثلما كان، وأن يحافظ على شخصيّته وأخطائه على حالها.

وإنَّ «أمير الضباب» هو الكتاب الأوّل من سلسلة رواياتٍ «شبابيّة»، إلى جانب «قصر منتصف الليل» و«أضواء سبتمبر»، والرواية المستقلّة «مارينا»، ألّفتُها قبل أعوامٍ من إصدار «ظلّ الريح». وقد يتأثّر بعض القرّاء الناضجين بشعبيّة الرواية الأخيرة، فيندفعون لاستكشاف حكايات الغموض والمغامرة هذه، وآمل أن يُعجَبَ قرّاءٌ جددٌ بها فيستهلّون رحلتهم ومغامرتهم بالقراءة مدى الحياة.

إلى الجميع من كلا الجانبين، أيّها القرّاء الشباب والشباب القرّاء، لا يسعني إلّا أن أنقل لكم امتنان هذا الراوي، الذي ما انفكّ يحاول نيل اهتمامكم، وأن آمل لكم قراءةً ممتعة.

كارلوس رويث ثافون

مايو ٢٠٠٦

الفصل الأوّل



كان ينبغي أن تمرّ سنواتٌ طويلة قبل أن ينسى ماكس الصيفَ الذي اكتشف فيه السحر، عن طريق الصدفة تقريبًا. كان ذلك في العام ١٩٤٣ ورياحُ الحرب تجرف العالَمَ نحو الهاوية بلا هوادة. وفي منتصف يونيو، في اليوم الذي أتمّ فيه ماكس عامه الثالث عشر، كان والده - الساعاتيُّ، والمخترعُ خلال أوقات الفراغ - قد جمع العائلة في الصالة وصرّحَ أنّ ذلك هو اليوم الأخير الذي يقضونه في ما كان بيتهم خلال السنوات العشر الأخيرة. ستنتقل العائلة إلى الساحل، بعيدًا عن المدينة وعن الحرب، ليستقرّوا في بيتٍ بجانب شاطئ بلدةٍ صغيرة على ضفاف المحيط الأطلسيّ.

كان القرار حاسمًا: سيغادرون في فجر اليوم التالي. ويَتَعيَّنُ عليهم حتّى تلك اللحظة أن يحزموا أمتعتهم كلّها ويتجهّزون للرحلة الطويلة صوب البيت الجديد.

تلقّت العائلةُ النبأ من دون مفاجأة. إذ بات جميعهم يتصوّرون أنّ فكرة مغادرة المدينة بحثًا عن مكانٍ صالحٍ للعيش تحوم منذ مدّة

في رأس الطيّب ماكسيمليان كارڤر؛ جميعهم ما عدا ماكس. كان أثر النبأ فيه يشبه ما قد ينجم عن اصطدام قاطرةٍ مجنونة بمحلّ خزفيّاتٍ صينيّة. ظلّ مصدومًا، فاغر الفاه، شارد النظرات. وأثناء تلك الغيبوبة القصيرة، راوده يقينٌ مريعٌ بأنّ كلَّ عالمه، بما فيه رفاق المدرسة، وأصدقاء الحيّ، وكشك القصص المصوّرة عند الزاوية، كان سيتلاشى إلى الأبد. في غمضة عين.

وبينما تفرَّقَ أفراد العائلة لتوضيب حقائبهم مستسلمين، ظلّ ماكس ثابتًا ينظر إلى أبيه. جثا الساعاتيُّ الطيّب أمام ابنه وحطَّ يديه على الكتفين. كانت نظرة ماكس أوضحَ من كتابٍ مفتوح.

- الآن سيبدو لك الأمر مثل نهاية العالم يا ماكس. لكنّي أعدك بأنّ المكان الذي سنذهب إليه سيعجبك. ستبني صداقاتٍ جديدةً هناك، سترى.

- أهذا بسبب الحرب؟ - سأله ماكس - ألهذا ينبغي لنا الرحيل من هنا؟

عانق ماكسيمليان كارڤر ابنه، وحافظ على ابتسامته وهو يُخرِج من جيب سترته غرضًا لامعًا معلّقًا بسلسلة ويضعه بين يديه. ساعة جيب.

- لقد صنعتُها من أجلك. عيدَ ميلادٍ سعيدًا يا ماكس.

فتحها الفتى. كانت فضّيّة. وكانت كلُّ ساعةٍ على الوجه مميّزةً برسمٍ لقمرٍ ينبسط وينقبض على إيقاع العقارب المتشكّلة من أشعّة شمسٍ تبتسم في الوسط. وهناك جملةٌ منحوتةٌ بأحرفٍ مزوّقة على الغطاء: «آلة الزمن، ماكس».

في ذلك اليوم، ومن دون أن يدري، وبينما كان يراقب أفراد أسرته يصعدون وينزلون محمَّلين بالحقائب، ممسكًا بالساعة التي أهداها له والده، ودَّعَ ماكس مرحلة الطفولة إلى الأبد.

*

لم تغمض لماكس عينٌ في ليلة عيد ميلاده. وفي حين كان الآخرون نيامًا، ترقَّبَ البزوغَ الحتميَّ لذلك الفجر الذي من شأنه أن يضع حدًّا فاصلًا للعالم الصغير الذي بناه على امتداد تلك السنوات. أمضى الساعات صامتًا، مستلقيًا على السرير، ونظره هائم بين الظلال الداكنة التي تتراقص على السقف، كأنّه يأمل أن يلحظ فيها الوحيَ القادرَ على رسم مصيره اعتبارًا من ذلك اليوم. كان يحمل بيده الساعة التي صنعها له أبوه. وكانت الأقمار المبتسمة تتألّق في ظلمة الليل. ربّما لدى تلك الأقمار إجابةٌ عن كلّ الأسئلة التي بدأ ماكس يراكمها منذ ذلك المساء.

بزغت أولى خيوط الفجر في المدى المعتم أخيرًا. فقفز ماكس عن سريره واتّجه إلى الصالة. كان ماكسيمليان كارڤر جالسًا على الأريكة، مرتديًا ثيابه، وفي يديه كتاب، بجانب ضوء المصباح. لم يكن ماكس الوحيد الذي أمضى ليلته ساهرًا. ابتسم له الساعاتيُّ وأغلق الكتاب.

- ماذا تقرأ؟ - سأله ماكس وهو يشير إلى المجلّد السميك.

- كتابًا عن كوبرنيكوس. هل تعلم مَن هو كوبرنيكوس؟ - ردّ الساعاتيّ.

- سأذهب إلى المدرسة. - قال ماكس.

اعتاد والده أن يوجّه له أسئلةً كما لو أنّه قد سقط عن شجرة توًّا.

- وماذا تعرف عنه؟ - ألحّ.

- اكتشف أنّ الأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس.

- تقريبًا. وهل تعلم ما الذي نجم عن ذلك؟

- مشاكل. - أجاب ماكس.

ابتسم الساعاتيُّ طويلًا ومدَّ الكتاب الثخين إليه.

- خذ. إنّه لك. اقرأه.

تفحَّصَ ماكس المجلّد الغامض. كان يبدو أنّ عمره ألف عام وأنّه يحتوي على روح جنّيٍّ عجوز مقيّدٍ في صفحاته بسبب لعنةٍ منذ مئة عام.

- حسنًا - اختصر الأب - مَن سيذهب لإيقاظ شقيقتيك؟

ومن دون أن تحيد عيناه عن الكتاب، هزَّ ماكس رأسه بمعنى أنّه سيترك لأبيه شرفَ انتزاعِ شقيقتيه، أليسيا وإيرينا، من نومهما العميق. كانت الأولى في الخامسة عشرة من عمرها، والأخرى في الثامنة.

وبينما اتّجه أبوه لإيقاظ كلّ أفراد العائلة، استرخى ماكس على الأريكة، فتح الكتاب وراح يقرأ. وبعد نصف ساعة، كانت العائلة برمّتها تجتاز عتبة البيت للمرّة الأخيرة نحو حياةٍ جديدة. وكان الصيف قد بدأ.

*

قرأ ماكس ذات مرّة في أحد كتب أبيه أنّ بعض صور الطفولة تبقى مسجّلةً في ألبوم ذاكرتنا كالصور الفوتوغرافيّة، كالمشاهِد التي نتذكّرها دومًا، والتي نعود إليها دائمًا على الرغم من مرور الزمن. أدرك ماكس معنى تلك الكلمات للمرّة الأولى عندما رأى البحر. كانوا على متن القطار منذ ما يزيد على خمس ساعات حينما خرجوا من نفقٍ مظلمٍ، على نحوٍ مباغت، فانبسطت صفيحةٌ واسعةٌ من نورٍ وضياءٍ شبحيٍّ أمام عينيه. وقد نُقِشَت زرقةُ البحرِ الكهربائيّةُ التي تسطع تحت شمس منتصف النهار في شبكيّة عينيه مثل رؤيا خارقةٍ للطبيعة. وبينما كان القطار يتابع مساره على بُعد أمتار قليلة عن المياه، أطلّ ماكس برأسه من النافذة وأحسَّ للمرّة الأولى بالرياح المشبعة بالملح على جلده. التفت لينظر إلى أبيه، الذي كان يراقبه من الطرف الآخر للمقصورة بابتسامةٍ ملغزة، ويهزّ رأسه على سؤالٍ لم يتمكّن ماكس من صياغته. عرف حينها أن لا أهميّة لوجهة تلك الرحلة ولا في أيّ محطّةٍ سيتوقّف القطار؛ فاعتبارًا من ذلك اليوم لن يعيش في مكانٍ لا يتسنّى له فيه أن يستيقظ كلّ صباح ليرى ذلك النور الأزرق والباهر يتصاعد نحو السماء كبخارٍ خياليٍّ وشفّاف. إنّه وعدٌ قطعه على نفسه.

*

وبينما كان ماكس على رصيف محطّة البلدة يتأمّل القطار الحديد وهو يمضي، ترك ماكسيمليان كارفر أسرته بضع دقائق مع الحقائب بجانب مكتب ناظر المحطّة، وذهب ليتفاوض مع بعض الحمّالين المحلّيّين على سعرٍ معقول لنقل الطرود والأشخاص وما

تبقّى إلى الوجهة النهائيّة. وكان الانطباع الأوّل لماكس حول البلدة ومظهر المحطّة والبيوت المتاخمة، التي تنهض أسطُحُها بخجلٍ ما بين الأشجار المحيطة، هو أنّ ذلك المكان يبدو مجسَّمًا عمرانيًّا مصغّرًا يُركِّبُهُ المولعون بجمع القطارات الكهربائيّة الصغيرة، حيث إذا جازف المرء بالمشي فيه أكثر ممّا ينبغي سقطَ عن الطاولة في نهاية المطاف. وكان ماكس إزاء تلك الفكرة يتمعّن في تنويعةٍ مثيرةٍ للاهتمام على نظريّة كوبرنيكوس حيال العالم، فإذا بصوت أمّه بجانبه يقطع عليه شطحات خياله الكونيّة.

- ما رأيك؟ ناجحٌ أم راسب؟

- من المبكر معرفة ذلك. - ردّ ماكس - تبدو البلدة مجسَّمًا مصغّرًا. كتلك المجسّمات التي توضع في واجهات دكاكين الألعاب.

- ربّما هي كذلك. - ابتسمت أمّه.

عندما كانت أمّه تبتسم، كان ماكس يلاحظ في وجهها انعكاسًا شاحبًا لأخته إيرينا.

- ولكنْ، لا تقل ذلك لأبيك. - تابعت - ها هو عائد.

عاد ماكسيمليان كارڤر وبرفقته حمّالان يرتديان ثيابًا ملطّخة ببقع الشحم والفحم وموادّ أخرى من المستحيل تحديدها. وكان كلاهما يعتمر طاقيّة بحّار، ولديهما شاربان كثّان يشكّلان جزءًا من بدلة عملهما.

- هذان روبن وفيليب. - أوضَحَ الساعاتيُّ - سيحمل روبن الحقائب وسيرافق فيليب العائلة. موافقون؟

ومن دون انتظار موافقة الأسرة، اتّجه الحمّالان القويّان نحو جبل الأمتعة ورفعا أثقلها بمنهجيّة ولم تظهر عليهما أمارات التعب. أخرج ماكس ساعته وأمعن النظر في وجهها ذي الأقمار المبتسمة. كانت العقارب تشير إلى الثانية ظهرًا؛ في حين أنّ الساعة القديمة في المحطّة تشير إلى الثانية عشرة والنصف.

- ساعة المحطّة لا تعمل جيّدًا. - غمغم ماكس.

- أرأيت؟ - ردّ أبوه مرحًا - لم نكد نصل ولدينا ما نقوم به.

ارتسمت على وجه الأمّ ابتسامة طفيفة، مثلما كانت تفعل دائمًا إزاء البراهين على التفاؤل الباهر الذي ينتاب زوجَها، لكنّ ماكس لاحظ في عينيها ظلَّ حزنٍ وإشراقةً فريدةً جعلتْهُ يظنّ في صغره أنّ أمّه تقرأ في المستقبل ما يعجز الآخرون عن رؤيته.

- سيكون كلُّ شيء على ما يرام يا أمّاه. - قال ماكس، وشعر أنّه غبيٌّ بعد مرور ثانيةٍ على لفظ تلك الكلمات.

داعبت أمّه وجنته وابتسمت.

- بالتأكيد يا ماكس. سيكون كلُّ شيء على ما يرام.

وفي تلك اللحظة أيقن ماكس أنّ أحدًا يراقبه. التفت بسرعة واستطاع أن يرى قطًّا كبيرًا مرقّطًا يحدّق إليه من بين قضبان إحدى نوافذ المحطّة، كأنّه يقرأ أفكاره. رَمَشَ الهرُّ ووثب برشاقةٍ لا تُصدَّقُ على حيوانٍ من ذلك الحجم، قطًّا كان أم لم يكن، واقترب من الصغيرة إيرينا ومَسَّحَ جانبَه بكاحليها. انحنت الطفلة لتداعب القطّ الذي كان يموء بصوتٍ منخفض. وأخذته بين ذراعيها فسمح لها أن تُدَلِّلَهُ بكلّ هدوء، وراح يلعق أصابعها برقّة وهي تبتسم

مسحورةً بفتنة الهرّ. دنت إيرينا حاملةً القطَّ من عائلتها التي كانت تنتظر.

- لم نكد نصل وها قد التقطتِ وحشًا. مَن يدري ما الذي جاء به. - قالت أليسيا باستياءٍ واضح.

- ليس وحشًا. إنّه قطٌّ، سائب. - ردّت إيرينا - أمّاه؟

- إيرينا، لم نصل إلى البيت حتّى... - بادرت أمّها.

اجتهدت الطفلة بالإيحاء بتكشيرةٍ باكية، وساندها الهرُّ بمواء رقيقٍ وجذّاب.

- بإمكانه البقاء في الحديقة. أرجوكِ...

- إنّه قطٌّ ضخمٌ وقذر. - أضافت أليسيا. - هل ستستسلمين لها مرّةً أخرى؟

توجّهت إيرينا إلى أختها الكبرى بنظرةٍ جامدة وثاقبة توحي بإعلان الحرب إلّا إذا أغلقت فمها. قاومتها أليسيا قليلًا ثمّ أشاحت نظرها، بزفرةٍ غاضبة، وابتعدت نحو الحمّالين اللذين كانا ينقلان الحقائب. التقت بأبيها الذي انتبه إلى شحوبٍ في وجه أليسيا.

- هل بدأتما بالشجار؟ - سألها - وما هذا؟

- قطٌّ وحيدٌ وشارد. ألا يمكننا الاحتفاظ به؟ سيبقى في الحديقة وسأعتني به بنفسي. أعد بذلك. - سارعت إيرينا لشرح الأَمر.

نظر الساعاتيُّ المذهول إلى القطّ ثمّ إلى زوجته.

- لا أعلم ما رأي أمّكِ...

- وما رأيك أنت، يا سيّد ماكسيمليان كارڤر؟ - ردّت الزوجة، بابتسامةٍ تُثبِتُ مدى سرورها بوضع زوجها في المأزق.

- حسنًا، ينبغي نقله إلى الطبيب البيطريّ ومِن ثَمَّ...

- أرجوك... - ناحت إيرينا.

تبادل الساعاتيُّ وزوجته نظرةَ تواطؤ.

- لِمَ لا؟ - اختتم ماكسيمليان كارڤر، إذ لم يفضِّلْ أن يبدأ الصيف بنزاعٍ عائليّ. - ولكنّكِ ستعتنين به. هل تعدين بذلك؟

أشرق وجه إيرينا وانقبضت حدقتا الهرّ حتّى بدت إبرتين سوداوين في كرة عينيه المذهَّبة والمنيرة.

- هيّا، فلنذهب! فلقد شُحِنَت الحقائب. - قال الساعاتيّ.

حملت إيرينا القطّ بين ذراعيها، وهي تركض نحو الشاحنتين. وما زال القطّ الذي سَنَدَ رأسه على كتف الطفلة يحدِّق بعينيه إلى ماكس. «كان في انتظارنا» قال الفتى في نفسه.

- لا تقف هناك متحجّرًا يا ماكس. تقدَّمْ. - ألحَّ والده وهو ذاهبٌ نحو الشاحنتين وممسكٌ بيد زوجته. فتبعهما ماكس.

وفي تلك اللحظة تمامًا أحسّ بضرورة الالتفات والنظر ثانيةً إلى ساعة المحطّة المغبرّة. تفحّصها بعناية وانتبه إلى شيء مّا ليس على ما يرام. كان ماكس يذكر جيّدًا أنّ ساعة المحطّة كانت تشير إلى الثانية عشرة والنصف حين وصلوا. وكانت العقارب آنذاك تشير إلى الثانية عشرة إلّا عشر دقائق.

- ماكس! - دوّى صوت أبيه وهو يناديه من الشاحنة - فلنمضِ!

- ها أنا قادم. - غمغم ماكس بصوتٍ منخفض، ولم يَحِدْ بنظره عن ساعة المحطّة.

لم تكن معطَّلة؛ بل كانت تعمل على نحوٍ تامّ، سوى أنّ لديها ميزةً واحدة: كانت عقاربها تدور إلى الخلف.

الفصل الثاني



كان بيت ماكسيمليان كارڤر الجديد يقع على الطرف الشماليّ من شاطئٍ طويل ينبسط قبالة البحر مثل صفيحةٍ بيضاء ومبهرة، تتخلّلها جُزُرٌ من الحشائش البرّيّة التي تتراقص مع الريح. وكان الشاطئ امتدادًا للبلدة، ومكوّنًا من بيوتٍ خشبيّةٍ صغيرة لا تعلو على طابقين، ومعظمها مطليٌّ بألوانٍ زاهيةٍ ومتدرّجة، ومزوّدٌ بحديقةٍ وسياجٍ أبيضَ مركَّبٍ بشكلٍ جيّد، ما يعزّز انطباع ماكس الذي راوده فور وصوله بأنّها عبارةٌ عن مدينةٍ للدمى. اجتازت العائلة البلدة، والميدان العامّ، وساحة البلديّة، بينما كان ماكسيمليان كارڤر يشرح عن عجائب المكان بحماسة مرشدٍ محلّيّ.

كانت البلدة هادئة، مغمورةً بالضياء نفسه الذي سَحَرَ ماكس عندما رأى البحر للمرّة الأولى. وكان معظم سكّانها يستخدمون الدرّاجة الهوائيّة للتنقُّل، أو سيرًا على الأقدام بكلّ بساطة. الطرقات نظيفة، والصوت الوحيد المسموع فيها يتمثّل بهمهمة الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، باستثناء دويّ محرّك مركبةٍ عابرة.

وكلّما توغّلوا في البلدة، استطاع ماكس أن يلحظ في وجوه كلّ فردٍ من عائلته الهواجسَ الناتجةَ عن تصوُّر سيناريو حياتهم الجديدة. وكانت إيرينا الصغيرة وقطُّها الموالي لها يتأمّلان الاستعراض المرتّب للطرقات والبيوت بفضولٍ وديع، كأنّهما يشعران أنّهما في بيتهما أساسًا. في حين كانت أليسيا، الغارقة في أفكارها المنيعة، تبدو على بُعد آلافٍ من الأميال، ما أكّد لماكس أنّه لا يعرف الكثير عن شقيقته الكبرى. أمّا والدته فكانت تنظر إلى البلدة على مضض، دون أن تفقد ابتسامتها المكرهة الهادفة إلى إخفاء القلق الذي يجتاحها، ولم يتمكّن ماكس من تفسيره؛ بينما كان ماكسيمليان كارڤر يتمعّن بالسكن الجديد بنشوة انتصار ويتّجه إلى كلّ أفراد عائلته بنظرةٍ يبادلونه إيّاها تلقائيًّا بابتسامة رضا (يبدو أنّ الحسّ السليم يؤكّد أنّ أيّ تصرُّفٍ مختلفٍ قد يجرح قلب الساعاتيّ الطيّب، الذي كان على يقينٍ بأنّه جاء بعائلته إلى الجنّة الجديدة).

وعلى إثر مشاهدة تلك الطرقات التي يغمرها الضوء والهدوء، فكّر ماكس أنّ شبح الحرب بعيدٌ بل لا وجود له، وأنّ أباه حظي بحدسٍ عبقريّ في اللحظة التي قرّر فيها الانتقال إلى هناك. وعندما دلفت الشاحنتان إلى الطريق المؤدّي إلى بيتهم على الشاطئ، امّحت من ذهن ماكس ساعةُ المحطّة والإزعاجُ الذي سبّبه صديق إيرينا الجديد في البداية. نظر نحو الأفق وظنّ أنّه يلمَح جانبَ سفينة، سوداء ومدبّبة، تبحر مثل سرابٍ في ضبابٍ يغبّش سطح المحيط. ثمّ اختفت بعد ثانية.

*

كان البيت مؤلّفًا من طابقين، وينهض على بُعد خمسين مترًا عن خطّ الشاطئ، ومحاطًا بحديقةٍ متواضعة ومحدّدة بسياجٍ يطالب بأعلى صوت بطبقةٍ جديدة من الطلاء. وكان البيت مبنيًّا من الخشب، ومطليًّا بالأبيض باستثناء السطح الداكن، ويُعَدُّ في حالٍ جيّدة نسبيًّا إذا أخذنا بالحسبان قربه من البحر، ما يعني تآكله يوميًّا بسبب خضوعه للريح الرطبة والمشبعة بالملوحة.

شرح ماكسيمليان كارڤر لعائلته، أثناء الطريق، أنّ البيت بُنيَ في العام ١٩٢٨ باعتباره منزلًا شاطئيًّا صيفيًّا لجرّاحٍ لندنيٍّ مرموق، الدكتور ريتشارد فليشمان، وزوجته إيڤا غري. وكان البيت في تلك الفترة يتّسم بالغرابة بأعين أهل البلدة. فالسيّد فليشمان وزوجته لم يرزقا أولادًا، كانا وحيدين، ولا يميلان إلى التخالط مع سكّان المكان على ما يبدو. وخلال الزيارة الأولى، عزم الدكتور فليشمان بكلّ وضوح على وجوب الإتيان بموادّ البناء واليد العاملة على حدٍّ سواء من لندن مباشرةً. وما كان لتلك النزوة إلّا أن تزيد سعر البيت ثلاثة أضعافٍ عمليًّا، غير أنّ الجرّاح بثروته الطائلة كان قادرًا على تحمُّل التكاليف.

راقب السكّان بعين التشكُّك والريبة، طوال شتاء العام ١٩٢٧، ذلك الذهاب والإياب لعددٍ لا يحصى من العمّال والشاحنات، بينما ترتسم المعالم الهيكليّة للبيت في طرف الشاطئ شيئًا فشيئًا ويومًا بعد يوم. وفي النهاية، خلال ربيع العام التالي، وضع الدهّانون لمساتهم الأخيرة، وانتقل إليه الزوجان بعد عدّة أسابيع لقضاء فصل الصيف. وما لبث أن تحوّل بيت الشاطئ إلى

تعويذةٍ ستغيّر مصير الزوجين فليشمان. إذ حبلت زوجة الجرّاح في ذلك العام، وهي التي كانت على ما يبدو قد فقدت القدرة على الحمل جرّاء حادثٍ وقع قبل بضع سنوات. وفي الثالث والعشرين من شهر يونيو، أنجبت السيّدة فليشمان، بمساعدة زوجها، تحت سقف بيت الشاطئ، ولدًا سيحمل اسم جاكوب.

كان جاكوب بمثابة النعمة التي نزلت من السماء وغيّرت طباع آل فليشمان الحادّة والمتوحّدة. وسرعان ما بدأ الطبيب وزوجته بالتآلف مع أهل البلدة وأصبحا شخصيّتين شعبيّتين ومحبوبتين طوال سنوات السعادة التي أمضياها في بيت الشاطئ، إلى أن وقعت مأساة العام ١٩٣٦. ففي أحد صباحات أغسطس من ذلك العام، غرق الصغير جاكوب وهو يلعب قبالة البيت.

وانطفأ نور البهجة الذي جاء به الولد المنتظَر لأبويه في ذلك اليوم إلى الأبد. وخلال العام ١٩٣٦، تدهورت صحّة فليشمان بشكلٍ متسارع، وما لبث الأطبّاء أن أدركوا أنّه لن يتمكّن من رؤية صيف العام ١٩٣٨. وبعد عامٍ من الفاجعة، عرض محامو الأرملة البيتَ برسم البيع. ظلّ خاويًا ولا أحد يرغب في شرائه لأعوام، منسيًّا هناك عند أطراف الشاطئ. عرف ماكسيمليان كارڤر بوجوده عن طريق الصدفة البحت. إبّان عودته من إحدى رحلاته التي كان يشتري فيها قطعًا وأدواتٍ للورشة، قرّر الساعاتيُّ أن يقضي ليلةً في البلدة. وخلال العشاء في الفندق المحليّ الصغير دردش على المائدة مع مالك الفندق، وعبّر له عن رغبته الأزليّة في العيش في مكانٍ كذاك. فحدّثه المالك عن البيت وقرّر ماكسيمليان أن يرجع

سفره لزيارة البيت في اليوم التالي. وفي طريق العودة، كان يضرب أخماسًا بأسداس ويقيِّمُ إمكانية افتتاح ورشةٍ في البلدة. واستغرق ثمانية أشهر قبل أن يزفّ النبأ إلى عائلته، لكنّه في أعماق قلبه كان قد حسم أمره منذ زمن.

*

سيبقى اليوم الأوّل في بيت الشاطئ خالدًا في ذاكرة ماكس كمجموعةٍ فريدة من الصور التي لا سابق لها. ففي البداية، وما إن توقّفت الشاحنتان أمام البيت أخذ روبن وفيليب ينزِّلان الحقائب، واستطاع ماكسيمليان كارڤر التعثّر بشكلٍ لا يُفسَّر بما بدا أنّه دلوٌ قديم، وبعد أن تشقلب في مسارٍ مُدَوِّخ، هبط على السياج الأبيض، ليهدم منه أكثر من أربعة أمتار. اختُتِمَ الحادثُ بضحكاتٍ مكبوتة من قِبَلِ العائلة، وكدمةٍ للضحيّة. لا خطورةَ تُذكَر.

نقل الحمّالان القويّان الأمتعةَ حتّى المستراح، واعتبرا أنّ مهمّتهما قد أُنجِزَتْ فاختفيا ليتركا للعائلة شرف حمل الحقائب على السلالم. وعندما فتح ماكسيمليان كارڤر البيت رسميًّا، انبثقت رائحة الأماكن المغلقة من الباب مثل شبحٍ ظَلَّ سجينًا بين تلك الجدران طوال أعوام. كان الداخل يتماوج بضبابٍ خفيفٍ من غبارٍ ونورٍ خافِتٍ يتغلغل من الدفّات الخشبيّة المنسدلة.

- يا ربّاه! - غمغمت والدة ماكس في سرّها، وهي تُقدِّرُ أطنانَ الغبارِ الواجبِ نفضُهُ.

- أعجوبة! - سارع ماكسيمليان كارڤر للقول - سبق أن أخبرتُكم!

تبادل ماكس وشقيقته أليسيا نظرةَ إذعان. وكانت الصغيرة إيرينا ترنو مذهولةً إلى داخل البيت. وقبل أن يلفظ أيُّ فردٍ من العائلة كلمة واحدة، قفز قطٌّ إيرينا من بين ذراعيها وانطلق نحو السلالم بمواءٍ جبّار.

احتذى به ماكسيمليان كارڤر بعد ثانية ودخل إلى المقام العائليّ الجديد.

- يُعجِبُ أحدًا على الأقلّ. - ظنّ ماكس أنّه سمع غمغمة أليسيا.

أنفذت والدة ماكس أوامرها الأولى بتأدية الطقس المعهود، ألا وهو فتح الأبواب والنوافذ على مصراعيها وتهوية البيت. ثمّ سعت العائلة قاطبةً طوال خمس ساعات لجعل البيت صالحًا للسكن. وبدقّة الجيش الاحترافيّ، تسلَّمَ كلّ فردٍ وظيفةً ملموسة. رتّبت أليسيا الغرف والأسِرَّة. إيرينا، ومنفضة الريش في يدها، انتزعت قلاعَ الغبار من أوكارها. وكان ماكس خلفها، إذ تكفَّلَ بجمع الغبار. وفي الأثناء، كانت الأمّ تفرِّقُ الحقائب وتسجّل الملاحظات في ذهنها عمّا يجب فعله. وكرَّسَ ماكسيمليان كارڤر قواه بحيث إنّ الأنابيب والأضواء وكلّ الأجهزة الميكانيكيّة في البيت عادت للعمل بعد أعوامٍ من السبات والعُطْل، ولم تبدُ المَهمّة سهلة.

وفي نهاية المطاف، اجتمعت العائلة في المستراح، وجلسوا على عتبات البيت الجديد، وسمحوا لأنفسهم باستراحةٍ مستحقّة

بينما كانوا يتأمّلون صبغة الذهب التي يتّخذها البحر عند هبوط المساء رويدًا رويدًا.

- هذا يكفي اليوم. - أعفاهم ماكسيمليان كارڤر، وقد بات متمرّغًا بسواد الدخان ومخلّفاتٍ مجهولةٍ كليًّا.

- يلزمنا العمل مدّة أسبوعين حتّى يصبح البيت صالحًا للسكن. - أضافت الأمّ.

- في الغرف العليا يوجد عناكب. - فسّرت أليسيا - ضخمة.

- عناكب؟ واو! - هتفت إيرينا - وكيف تبدو؟

- تبدو مثلكِ. - ردّت أليسيا.

- لن نبدأ الشجار، اتّفقنا؟ - قاطعتها أمّها، وهي تفرك أنفها - سيتولّى ماكس قتلها.

- لا داعي لقتلها؛ يكفي التقاطها ووضعها في الحديقة. - قال الساعاتيّ.

- المهام البطوليّة لا تُلقى إلّا على عاتقي. - غمغم ماكس - هل للمجزرة أن تنتظر إلى الغد؟

- ما رأيكِ يا أليسيا؟ - سألتْها أمّها.

- لن أنام إطلاقًا في غرفةٍ تغصّ بالعناكب واللّه أعلم أيّ حيوانات أخرى. - صرّحت أليسيا.

- غبيّة. - علّقت إيرينا.

- وحش. - ردّت أليسيا.

- تولَّ أمر العناكب يا ماكس، قبل أن تندلع حربٌ هنا. - قال ماكسيمليان كارڤر بصوتٍ متعب.

- هل أقتلها أم أهدّدها فحسب؟ بإمكاني أن أفتل أرجلها. . .
- ماكس! - قاطعته أمّه.

تمطّى ماكس ودخل إلى البيت، مستعدًّا لوضع حدٍّ لمستأجريه القدامى. صعد السلالم التي تفضي إلى الطابق الأعلى، حيث توجد غرف النوم. وكانت عينا قطّ إيرينا اللامعتان تحدّقان إليه دون أن يرفّ لهما جفن، من الدرجة العليا.

مرّ ماكس بجانب الهرّ الذي بدا أنّه يراقب الطابق الأوّل كالحرّاس. وما إن اتّجه نحو إحدى الغرف حتّى لحق القطّ به.

*

كانت الأرضيّة الخشبيّة تصرصر على وقع خطاه. باشر ماكس طرد العناكب من الغرف المطلّة ناحية الجنوب الشرقيّ. كان الشاطئ، وميلانُ الشمس عند المغيب، يُرى من النوافذ. تفحَّصَ الأرضيّة بعنايةٍ بحثًا عن كائناتٍ صغيرةٍ متحرّكةٍ ومشعرة. وبعدئذ، باتت الأرضيّة نظيفة بشكلٍ معقول، واستغرق ماكس دقيقتين لتحديد الفرد الأوّل من أسرة العنكبيّات. رأى عنكبوتًا بضخامةٍ معتبرةٍ يتقدّم بخطّ مستقيم تجاهه، كما لو أنّه سفّاحٌ موفدٌ من أبناء نوعه لإرغامه على العدول عن فكرته. من الوارد أنّه بطول نصف بوصة تقريبًا، وله ثماني أرجل وبقعةٌ ذهبيّةٌ على جسمه الأسود.

مدّ ماكس يده نحو مكنسة مسنودة إلى الجدار وتهيّأ لقذف الحشرة إلى حياةٍ أخرى. «مضحك» قال في نفسه وهو يُشهِر المكنسة بحذرٍ لاستخدامها سلاحًا فتّاكًا. وكان على وشك تسديد الضربة القاضية فإذا بقطّ إيرينا ينقضّ بغتةً على العنكبوت، ويفتح

شدقَ الأسدِ المصغَّرِ الذي لديه، وينشب أنيابه فيه ويمضغه بقوّة. ترك ماكس المكنسة ونظر مذهولًا إلى القطّ الذي بادله نظرةً لئيمة.

- عجبًا أيّها القطّ الصغير! - همس.

ابتلع القطُّ العنكبوتَ وخرج من الغرفة، وأغلب الظنّ أنّه راح يبحث عن أحد أقارب تلك الوجبة الأخيرة. اقترب ماكس من النافذة. ما زالت عائلته في المستراح. وجّهت إليه أليسيا نظرةً استفهاميّة.

- عن نفسي لن أقلق يا أليسيا. لا أظنّ أنّكِ سترين عناكب أخرى.

- تأكَّدْ جيّدًا. - ألحَّ ماكسيمليان كارفر.

أومأ ماكس واتّجه نحو الغرف المطلّة على الجانب الخلفيّ، ناحية الشمال الشرقيّ.

سمع مواء القطّ في الجوار وتصوَّرَ أنّ عنكبوتًا آخَرَ قد سقط بين براثن الهرّ المبيد. كانت الغرف الخلفيّة أصغر من التي عند الواجهة الأماميّة. أخذ يرنو إلى الإطلالة من إحدى النوافذ: للبيت فِناءٌ صغيرٌ في الخلف مزوّدٌ بما يشبه السقيفة التي يصلح استخدامها مخزنًا للأثاث أو مرأبًا للسيّارات. وفي وسط الفِناء تنهض شجرةٌ كبيرة، تعلو قمّتُها علّيّةَ السطح. وبالحُكم على مظهرها، تخيَّلَ ماكس أنّها هناك منذ ما يزيد على مئتي عام.

يمتدّ حقلٌ من الأعشاب البريّة ما وراء الفِناءِ والسياج الذي يطوّق البيت، وبعد الحقل بمئة مترٍ تقريبًا ثمّة سورٌ صغيرٌ محدّدٌ بحائطٍ حجريٍّ أبيض. غزاه الغطاء النباتيّ فأحاله إلى دغلٍ صغيرٍ

يبرز منه شكلان وقد بدا كلٌّ منهما بشريًّا في نظر ماكس. وكانت أواخر أضواء النهار تسقط على الحقل ما اضطرّه إلى أن يدقِّق ببصره. تلك حديقةٌ مهجورة. حديقة تماثيل. تمعّن ماكس مسحورًا بغرابة منظر التماثيل الحبيسة ما بين الأعشاب الضارّة والعالقة في ذلك السور، ما يوحي بأنّها مقبرةٌ صغيرةٌ للبلدة. وهناك بوّابةٌ حديديّةٌ موصدةٌ بسلسلة تمنع الدخول. استطاع ماكس أن يلمح، في قمّة الحراب المدبّبة، شعارًا على شكل نجمةٍ سداسيّة. وفي البعيد، ما وراء حديقة التماثيل، عتبةٌ إلى غابةٍ دهماءَ تبدو ممتدّةً لأميال.

- هل توصّلتَ إلى اكتشافٍ جديد؟ - انتزعه صوت أمّه من الغيبوبة التي أغرقته فيها تلك الرؤية - ظننّا أنّ العناكب أجهزت عليك.

- هل تعلمين أنّ خلف البيت، وبالقرب من الغابة، توجد حديقةُ تماثيل؟ - أشار ماكس إلى السور الحجريّ فأطلّت أمّه من النافذة.

- حلَّ الظلام. أبوك وأنا سنذهب إلى البلدة للبحث عن شيءٍ للعشاء، أو لصباح الغد ريثما نشتري المؤن. ستبقون في البيت. أبقِ عينيك على إيرينا.

أومأ ماكس. قبّلته أمّه على خدّه برفق ونزلت السلالم. التفت ماكس ثانيةً نحو حديقة التماثيل، التي كانت جوانبها تمتزج بضباب الغسق شيئًا فشيئًا. أغلق النافذة وذهب لفعل الأمر نفسه في الغرف الأخرى. بلغته إيرينا الصغيرة في الممرّ.

- هل كانت كبيرة؟ - سألته مبهورةً.

تردَّدَ ماكس للوهلة الأولى.

- العناكب يا ماكس. هل كانت كبيرة؟

- بحجم قبضة اليد. - أجابها بجدّيّة.

- واو!

الفصل الثالث



في اليوم التالي، قبل الفجر بقليل، أحسَّ ماكس على طيفٍ متدثّرٍ بضباب الليل يهمس شيئًا مّا في أذنه. أفاق جفلًا، وقلبه يخفق بشدّة، مقطوع الأنفاس. كان في الغرفة وحيدًا. إذ إنّ الصورة التي رآها في الحلم، ذلك الطيف القاتم الذي يغمغم في الظلام، تلاشى في غضون ثوانٍ. مدّ يده نحو الدُّرج وأشعل المصباح الذي صلَّحه ماكسيمليان كارڤر في مساء اليوم السابق.

رأى من النافذة أنّ أولى خيوط الضوء تبزغ فوق الغابة. وكان الضباب يجري ببطءٍ في حقل الأعشاب الضارّة، والنسائم تفتح ثغراتٍ تُلمَحُ من خلالها تماثيل الحديقة. أخذ ماكس الساعة من على الدُّرج وفتحها. كانت الأقمار المبتسمة تلمع كصفائح الذهب: بضع دقائق تفصله عن السادسة.

ارتدى ثيابه بصمتٍ ونزل السلالم بحذر، خشية أن يوقظ عائلته. ذهب إلى المطبخ. ما زالت بقايا عشاء الأمس على الطاولة الخشبيّة. فتح الباب الذي يفضي إلى الفِناء الخلفيّ

وخرج. نهش هواءُ الفجرِ الباردُ والرطبُ جلدَه. اجتاز الفِناء صامتًا حتّى باب السياج. أغلقه خلف ظهره وولج إلى الضباب باتّجاه حديقة التماثيل.

*

كان المشي تحت الضباب أطول ممّا توقَّع. فمن نافذة غرفته، يبدو السور الحجريّ أنّه على بُعد أمتارٍ عن البيت. إلّا أنّه وهو يمشي بين الحشائش البرّيّة، أحسَّ أنّه قد سار أكثر من ثلاثمئة متر، عندما برزت بوّابة حديقة التماثيل أمام عينيه بين أبخرة الضباب.

الحراب المعدنيّة الصدئة مكبّلةٌ بسلسلةٍ مؤكسدةٍ ومغلقةٍ بقفلٍ قديمٍ صبغَهُ الزمنُ بلونٍ كالح. أسند ماكس وجهه بين الحراب وتحرَّى ما في الداخل. كانت الأعشاب قد توغَّلت شيئًا فشيئًا مع مرور الزمن، لتسبغ المكان بطابع الدفيئة المهجورة. ففكّر ماكس أن لا أحد قد وطئ بقدميه فيه منذ أمدٍ بعيد، وأنّ حارس حديقة التماثيل تلك، أيًّا كان، لا بدّ أنّه قد رحل منذ أعوام.

نظر حوله فوجد حجرةً بحجم يده بجانب سور الحديقة. حملها وضرب بها القفل ضربًا شديدًا وأكثر من مرّة حتّى تراخى طوقُهُ البالي. انفكّ القفل وتأرجَحَ على الحراب كأنّه ضفيرة فروةٍ معدنيّة. دفع ماكس البوّابة بقوّة وأحسَّ كيف تتهادى إلى الداخل. وَعندما صار المنفذ بين الدفّتين وسيعًا بما يسمح له الدخول، استراح قليلًا ثمّ دخل.

وحين أتمّ هذه الخطوة، لاحظ أنّ المكان كان أكبر ممّا تخيّله

في البدء. فخلال النظرة الأولى، كاد يجزم أنّ فيه قرابة العشرين تمثالًا مختبئة بين الحشائش. تقدَّمَ بضع خطوات وولج إلى الحديقة الموحشة. وكانت الأشكال، في الظاهر، معروضةً ضمن دوائرَ متّحدة المركز، وأدرك ماكس للمرّة الأولى أنّ جميعها ترنو إلى جهة الغرب. كانت تبدو أنّها تشكّل جزءًا من كلٍّ واحدٍ وتجسِّد ما يشبه جوقة سيرك. وكلّما تمشَّى ما بينها، تفرَّسَ فيها شكلَ مروِّضٍ، ودرويشٍ بعمامةٍ وأنفٍ معقوف، وبهلوانةٍ، ورجلٍ مفتول العضلات، وإلى ما هنالك من معرضٍ لشخصيّاتٍ خارجةٍ من سيركٍ شبحيّ.

وفي وسط الحديقة، يهيمن على إحدى القواعد تمثالٌ كبيرٌ يجسِّد مهرِّجًا مبتسمًا مجعَّدَ الشعر. ذراعه ممدودةٌ، ويبدو أنّه يضرب بقبضته - المغلولة في قفّازٍ كبير عليها بشكلٍ غير متناسب - شيئًا في الهواء لا تراه العين. لمح ماكس عند قدمي التمثال بلاطةً حجريّة يبرز عليها رسمًا نافرًا. جلس القرفصاء وأزاح الحشائش التي تغطّي سطح البلاطة البارد، ليكتشف نجمةً كبيرةً سداسيّةً ومحاطةً بدائرة. عرف الشعارَ، فهو مطابقٌ لذاك المعلَّق على بوّابة المدخل.

تمعَّنَ ماكس في النجمة، فأدرك أنّ ما بدا له في البدء دوائرَ متّحدة المركز بانتظامٍ بين التماثيل ليس في الواقع سوى نسخة مطابقة للنجمة السداسيّة. كلُّ شكلٍ في الحديقة يوجد في نقطة تقاطع الخطوط التي تتشكّل منها النجمة. نهض ماكس وتفحَّصَ المشهد الشبحيّ الذي يحيط به. أجال نظره إلى كلٍّ من التماثيل،

المغطّاة بسيقان الأعشاب البرّيّة التي تتمايل مع الريح، إلى أن استقرّت عيناه من جديد على المهرّج الكبير. اقشعرّ بدنه وتراجع خطوةً إلى الخلف. يد التمثال، التي رآها على شكل قبضة منذ برهة، أصبحت مبسوطةً آنذاك، بكفٍّ ممدودة، دلالةً على الدعوة. شعر ماكس لوهلةٍ أنّ هواء الفجر البارد يلسع حنجرته وأحسَّ بنبضات قلبه في صدغيه.

عاد باتّجاه البوّابة، بخطواتٍ متباطئة كأنّما يخشى إيقاظ التماثيل من نومها الأبديّ، وما انفكّ ينظر إلى الخلف عند كلّ خطوة. وعندما خرج، بدا له أنّ بيت الشاطئ بعيدٌ جدًّا. ومن دون أن يفكّر مرّتين هَمَّ بالركض ولم يلتفت هذه المرّة مطلقًا، حتّى وصل إلى سور الفِناء الخلفيّ. وهناك نظر إلى الوراء، فوجد أنّ حديقة التماثيل مغمورةٌ بالضباب مجدّدًا.

*

كانت رائحة الزبدة والخبز المحمّص تملأ المطبخ. أليسيا تنظر إلى فطورها بفتور بينما تصبّ إيرينا الصغيرة قليلًا من الحليب للقطّ الذي تبنَّته مؤخّرًا في صحنٍ لم يتكرّم الهرّ بلمسه. لاحظ ماكس المشهد، وفكّر أنّ ميول القطّ الغذائيّة تتّخذ مسلكًا مغايرًا، مثلما تبيَّنَ في اليوم الماضي. وكان ماكسيمليان كارفر يمسك فنجان قهوة ساخنة بيديه وينظر إلى عائلته مبتهجًا.

- أجريتُ تحريّاتي في المرأب في الباكر من صباح اليوم. - بادر قائلًا، متّخذًا نبرةً غامضةً يستخدمها حين يريد أن يسأله الآخرون عن اكتشافاته.

كان ماكس يعرف جيّدًا استراتيجيّات الساعاتيّ، حتّى إنّ الأخير يتساءل أحيانًا مَن هو الأب ومَن الابن.

- وعلام عثرت؟ - سأله.

- لن تصدِّق. - ردّ أبوه، مع أنّ ماكس قال في سرّه «وكيف لا» - درّاجتان هوائيّتان.

قطَّبَ ماكس حاجبيه مستفسرًا.

- قديمتان بعض الشيء، ولكنْ ستكفيهما مسحةٌ من الشحم على الجنزير وتصبحان بسرعة النيزك. - أوضَحَ ماكسيمليان كارڤر - على أنّ هذا ليس كلّ شيء. هل تعلمون ماذا وجدتُ في المرأب أيضًا؟

- آكِلُ نمل. - غمغمت إيرينا، دون أن تكفّ عن تدليل قطّها.

كانت ابنة كارڤر الصغرى، التي لم تتجاوز عامها الثامن بعد، قد طوّرت تكتيكًا مدمّرًا لنسف مزاج أبيها.

- كلّا. - ردّ الساعاتيّ، مستاءً بشكلٍ واضح - أما من أحدٍ يخمِّن؟

لاحظ ماكس بطرف عينه أنّ أمّه تراقب المشهد، وتهرع لإنقاذ زوجها، طالما أن لا أحد قد بدا مهتمًّا بمغامرات زوجها المحقّق.

- ألبوم صور؟ - اقترحت أندريا كارڤر بأعذب نبرات صوتها.

- تقريبًا، تقريبًا. - ردّ الساعاتيُّ وقد انتعش فرحًا. - ماذا عنك يا ماكس؟

نظرت إليه أمّه خلسةً، فهزَّ رأسه.

- لا أدري. دفتر يوميّات؟

- لا. أليسيا؟

- أستسلم. - قالت أليسيا، الشاردة بشكلٍ جليّ.

- حسنًا، حسنًا. تهيّأوا. - بدأ ماكسيمليان كارڤر - لقد وجدتُ جهازَ عرض. عارضٌ سينمائيّ. وعلبةٌ كبيرة مليئةٌ بالأفلام.

- أيُّ نوعٍ من الأفلام؟ - قاطعته إيرينا، وقد أشاحت عينيها لأوّل مرّةٍ عن قطّها منذ ربع ساعة.

رفع ماكسيمليان كارڤر كتفيه.

- لا أدري. أفلام. أليس هذا مدهشًا؟ لدينا سينما في البيت.

- في حال لم يكن العارض معطَّلًا. - قالت أليسيا.

- شكرًا على التشجيع، لكنّي أودّ أن أذكِّركِ أنّ أباكِ يكسب قوت يومه بتصليح الأجهزة المعطّلة.

حطّت أندريا كارڤر يديها على كتفي زوجها.

- كم أنا سعيدةٌ بسماع ذلك يا سيّد كارڤر، لأنّه من المستحسن أن يتولّى أحدهم التفاهم مع السخّانة في القبو.

- دعي أمرها لي. - قال الساعاتيّ، وهو ينهض عن الطاولة.

احتذت به أليسيا.

- يا آنسة. - توجّهت إليها أمّها - الفطور أوّلًا. لم تمسّيه.

- لستُ جائعة.

- سآكله أنا. - اقترحت إيرينا.

استنكرت أندريا كارڤر تلك الإمكانيّة نهائيًّا.

- لا تريد أن تصبح بدينة. - همست إيرينا للقطّ بنبرةٍ خبيثة.

- لا أستطيع أن آكل صحبة هذا الشيء الذي يتجوّل في كلّ الأرجاء ويفقد وبره عند كلّ زاوية. - أوجزت أليسيا.

نظرت إيرينا وقطّها إليها بازدراءٍ متطابق.

- تافهة. - حكمت إيرينا، وهي تخرج إلى الفِناء مع الهرّ.

- لماذا تسايرينها دومًا؟ عندما كنتُ في سنّها، لم تسامحيني على نصف ما تتفوّه به. - احتجّت أليسيا.

- عدنا إلى هذه القصّة؟ - قالت أندريا كارڤر بصوتٍ هادئ.

- لستُ مَن بدأ الشجار. - ردّت الابنة الكبرى.

- حسنًا. أنا آسفة. - داعبت أندريا كارڤر شعر أليسيا الطويل برفق، فهزّت البنت رأسها، لتتجنّب اللفتة المتودِّدة. - ولكنْ أكملي فطوركِ. أرجوك.

وفي تلك اللحظة فرقَعَ صوتٌ معدنيٌّ تحت أقدامهم. وتبادل الجميع النظرات.

- أبوكم يعمل. - غمغمت أندريا كارڤر وهي تنهي فنجان قهوتها.

أخذت أليسيا تمضغ قطعةً من الخبز المحمّص على مضض، بينما كان ماكس يحاول أن ينسى صورة اليد الممدودة والنظرة الفارغة للمهرّج الذي كان يبتسم وسط ضباب حديقة التماثيل.

الفصل الرابع



كانت الدرّاجتان اللتان انتشلهما ماكسيمليان كارفر من برزخ مرأب الفِناء الصغير في حالةٍ أفضل ممّا توقَّعَ ماكس. بل كانتا تبدوان في الواقع أنّهما لم تُستَخدما من قبل نهائيًّا. تدجَّجَ ماكس بخرقتين وسائلٍ خاصٍّ لتنظيف المعادن لا تستغني عنه أمّه أبدًا، واكتشف أنّ كلًّا من الدرّاجتين، تحت قشرة العفن والوسخ، جديدةٌ ولامعة. وضع الشحمَ على الجنازير والمسنَّنات ونفخ العجلات بمساعدة أبيه.

- ربّما سنضطر إلى تغيير الأنابيب المطّاطيّة. - أعرب ماكسيمليان كارفر - لكنّ الدرّاجتين قادرتان على المضيّ قُدُمًا حتّى اللحظة.

كانت إحداهما أصغر من الأخرى، وبينما كان ماكس ينظّفهما، ما انفكّ يتساءل إذا كان الطبيب فليشمان قد اشتراهما قبل أعوام مؤملًا بالتجوّل عليهما مع ابنه جاكوب على امتداد

الطريق الساحليّ. قرأ ماكسيمليان كارڤر في نظرة ابنه شعورًا بالذنب وإن طفيفًا.

- إنّني متأكّدٌ أنّ الطبيب العجوز سيكون سعيدًا لو أنّك ركبتَ الدرّاجة.

- أنا لست متأكّدًا. - غمغم ماكس - لماذا تركوا الدرّاجتين هنا؟

- الذكريات التعيسة تلاحقك من دون الحاجة إلى أخذها معك. - أجاب ماكسيمليان كارڤر - أتصوّر أن لا أحد قد استخدم أيًّا منهما. هيّا، اركب. فلنذهب لتجريبهما.

وضعا الدرّاجتين على الأرض وعيَّرَ ماكس ارتفاع السرج، وجرَّبَ في الوقت ذاته ضغط المكابح.

- ينبغي وضع مزيدٍ من الشحم على المكابح. - اقترح.

- توقّعتُ ذلك. - أكّدَ الساعاتيّ، وَهَبَّ إلى العمل. - اسمع يا ماكس.

- أجل يا أبي.

- لا تفرط في التفكير بقصّة الدرّاجتين، اتّفقنا؟ فما حدث لتلك العائلة المسكينة ليس مرتبطًا بنا البتّة. لا أعرف إن كنتُ قد أحسنتُ صنعًا بقصّ حكايتهم عليكم. - أضاف الساعاتيُّ وقد تظلَّلَ وجهه بالقلق.

- لا يهمّ. - شدَّ ماكس المكابح ثانيةً - هذا ممتاز.

- فانطلق إذن.

- ألن تأتي معي؟ - سأله ماكس.

- بعد الظهر، إن كانت ما تزال لديك رغبة، سأُنزِلُ بك هزيمة عمرك. إلّا أنّني على موعدٍ مع شخصٍ يدعى فريد في البلدة عند الحادية عشرة، سيتنازل لي عن محلٍّ للورشة. ينبغي لي أن أفكّر في العمل أيضًا.

بدأ ماكسيمليان كارڤر بجمع الأدوات ومسح يديه بالخرقة. راقب ماكس والده، متسائلًا كيف كان عليه في عمره. ففي نطاق العائلة يقال إنّهما متشابهان، غير أنّهم يقولون أيضًا إنّ إيرينا تشبه أمّها، ما يعني أنّه بصدد إحدى تلك الكليشيهات الغبيّة التي تردّدها الجدّات والخالات وجوقة أبناء العمومة الغلاظ الذين يظهرون في عشاء عيد الميلاد عامًا بعد عامٍ كالدجاج الحاضن.

- ماكس سارحًا في إحدى تجلّياته. - علّقَ ماكسيمليان كارڤر مبتسمًا.

- هل تعلم أنّ بجانب الغابة خلف البيت حديقةَ تماثيل؟ - سأله ماكس متفاجئًا من سماع نفسه وهو يصوغ السؤال.

- أتصوّر أنّ في الأرجاء أشياء كثيرة لم نرها بعد. حتّى المرأب مليءٌ بالصناديق، ولاحظتُ هذا الصباح أنّ قبو السخّانة يبدو متحفًا. أظنّ أنّنا إذا بعنا كلّ الأغراض المهملة في هذا البيت لبائع تحفٍ قديمة لن أضطرّ حتّى إلى افتتاح الورشة؛ سنعيش من الإيرادات.

توجّهَ ماكسيمليان كارڤر إلى ابنه بنظرةٍ استجوابيّة.

- اسمع، إن لم تجرّب هذه الدرّاجة فإنّ العفن سيغزوها من جديد وستتحوّل إلى مستحاثة.

- إنّها كذلك أساسًا. - قال ماكس، واستهلّ بالدوسة الأولى على الدرّاجة التي لم يتسنّ لجاكوب فليشمان ركوبها.

تدرَّجَ ماكس بمحاذاة خطٍّ طويلٍ من منازل شبيهة بمقام عائلة كارفر الجديد، متّجهًا نحو البلدة على طريق الشاطئ المؤدّي تمامًا إلى مدخل الخليج الصغير حيث يوجد مرفأ الصيّادين. أحصى بالكاد أربعة أو خمسة مراكب راسية عند الأرصفة القديمة، معظمها قوارب خشبيّة صغيرة لا تتعدّى الخمسة أمتار طولًا، يستخدمها صيّادو المنطقة لمواجهة الساحل بشباكٍ قديمةٍ على بُعد مئة متر عن الشاطئ تقريبًا.

تجنَّبَ ماكس بدرّاجته متاهة القوارب قيد التصليح عند المرسى وأكوام الصناديق الخشبيّة لسوق السمك المحلّيّة. ثبّتَ نظره على المنارة الصغيرة، ودلف إلى كاسر الأمواج المنحني الذي يغلق المرفأ كالهلال. وصل إلى حافته، أسند الدرّاجة إلى المنارة وجلس ليستريح على إحدى الصخور الكبيرة في الجانب الآخر من السدّ، وقد قضمتها هجماتُ البحر. استطاع من مكانه أن يتأمّل المحيط المنبسط إلى ما لانهاية مثل صفيحة ضوءٍ باهر.

وما لبث أن جلس منذ دقائق قبالة البحر، حتّى رأى درّاجةً أخرى يقودها فتىً طويلٌ ونحيل، يقترب على امتداد الرصيف. تكهَّنَ ماكس أنّ عمر الفتى بحدود ستة عشر أو سبعة عشر عامًا.

وصل حتّى المنارة وترك درّاجته بجانب درّاجة ماكس. ثمّ نحّى شعره الغزير عن وجهه برفقٍ وسار باتّجاهه.

- مرحبًا. هل أنت من العائلة التي انتقلت إلى البيت في آخِر الشاطئ؟

أومأ ماكس بالإيجاب.

- اسمي ماكس.

مدّ الفتى يده، وكانت له عينان خضراوان وثاقبتان، ويتّسم باسمرار جلده الشديد بفعل الشمس إلى حدٍّ كبير.

- رولاند. مرحبًا بك في «مدينة الملل».

ابتسم ماكس وصافح يد رولاند.

- كيف البيت؟ هل يعجبكم؟ - سأله الفتى.

- هناك تضاربٌ في الآراء. والدي يحبّه حتّى الموت. أمّا بقية العائلة فتراه من وجهة نظر أخرى. - فسَّرَ ماكس.

- عرفتُ أباكَ منذ عدّة أشهر، عندما جاء إلى البلدة. - قال رولاند - بدا لي شخصًا مرحًا. ساعاتيٌّ، أليس كذلك؟

أومأ ماكس.

- إنّه شخصٌ مرح. - أكّدَ - أحيانًا. وفي أحيانٍ أخرى تخطر في ذهنه أفكارٌ غريبة، كالانتقال إلى هنا مثلًا.

- وما الذي جاء بكم إلى البلدة؟ - سأله رولاند.

- الحرب. - أجاب ماكس - يفكّر والدي أنّ هذه الفترة ليست جيّدة للعيش في المدينة. أتصوَّر أنّه محقّ.

- الحرب. - ردّد رولاند، وأخفض نظره - سيستدعونني للتجنيد في سبتمبر.

التزم ماكس الصمت. انتبه الفتى إلى صمته فابتسم من جديد.

- هناك جانبٌ إيجابيّ. - قال - ربمّا يكون آخِرَ صيفٍ أقضيه في البلدة.

ردّ ماكس على ابتسامته ببسمةٍ خجولة، وتوجَّسَ أنّه سيستلم رسالة الاستدعاء هو كذلك بعد بضعة أعوام ما لم تنتهِ الحرب. كان شبح الحرب يخيِّمُ على المستقبل بعباءة الظلام حتّى خلال نهارٍ مشمس كهذا.

- أتصوّر أنّك لم تزر البلدة بعد. - قال رولاند.

نفى ماكس برأسه.

- حسنًا أيّها المستجدّ. اركب الدرّاجة. سنباشر الجولة السياحيّة على العجلات.

*

تعيَّنَ على ماكس أن يبذل جهدًا إضافيًّا لمواكبة وتيرة رولاند. فبعد أن تدرَّجَ مئتي متر بالكاد، من رأس كاسر الأمواج، بدأ يشعر بأولى قطرات العرق تنزلق على جبينه وخاصرتيه. التفت رولاند ووجَّهَ إليه ابتسامةً ساخرة.

- انعدام التدريب، ها؟ أفقَدتكَ الحياة في المدينة رشاقتك. - صاح به دون أن يخفِّف سرعته.

لحق ماكس برولاند عبر طريق الشاطئ ليدخلا إلى طرقات

البلدة. وعندما ظلّ ماكس متخلّفًا، خفّف رولاند سرعته حتّى توقَّفَ أمام نافورة حجريّة كبيرة في وسط إحدى الساحات. تدرَّجَ ماكس حتّى هناك وترك الدرّاجة أرضًا. كانت المياه الباردة تنبجس بعذوبة من النافورة.

- لا أنصحك بها. - قال رولاند إذ قرأ أفكاره - التقط نفسًا.

تنفَّسَ ماكس عميقًا ووضع رأسه تحت انهمار الماء البارد.

- ستتدرّج ببطء - وافَقَ رولاند.

ظلّ ماكس تحت الماء بضع لحظات ثمّ جلس على الأرض وأسند كتفيه إلى الحجر، بينما كانت المياه تقطر من رأسه على ثيابه. وكان رولاند يبتسم له.

- في الحقيقة لم أتوقّع أنّك ستصمد كثيرًا. هذا - أشار إلى ما حوله - هو مركز البلدة. ساحة البلديّة. وهذا المبنى هو المحكمة، لكنّه لم يعد يُستَخدم. وفي يوم الأحد ثمّة سوقٌ هنا. وفي المساء، خلال الصيف، يعرضون فيلمًا على جدار البلديّة. قديم، بطبيعة الحال، وبأشرطةٍ مبعثرة.

أومأ ماكس بإرهاق، وهو يستعيد أنفاسه.

- يبدو رائعًا، ها؟ - ضحك رولاند - ثمّة مكتبة أيضًا، ولكنْ أقطع يدي إن كانت تحوي أكثر من ستّين كتابًا.

- وما الذي يفعله الناس هنا؟ - تمكّن ماكس من النطق - عدا عن ركوب الدرّاجة.

- سؤالٌ وجيه يا ماكس. أرى أنّك بدأتَ تدرك الأمور. هل نذهب؟

تنهَّدَ ماكس وعادا إلى الدرّاجة.

- ولكنْ دع لي تحديد الوتيرة. - طلب ماكس. رفع رولاند كتفيه لامباليًا واستأنف السير.

*

أرشد رولاند ماكس في أنحاء البلدة وأرجائها صعودًا هبوطًا مدّةَ ساعتين كاملتين. شاهدا الجرف الصخريّ في الجانب الجنوبيّ، حيث كشف له رولاند أنّه أفضل مكانٍ لممارسة الغوص، بقرب سفينةٍ قديمةٍ غرقت في العام ١٩١٨ وأصبحت دغلًا مغمورًا يعجّ بأغرب أعشاب البحر من شتّى الأنواع. وشرح رولاند أنّ السفينة، أثناء عاصفة ليليّة مريعة، علقت بين الصخور الخطيرة الموجودة على عمق أمتارٍ قليلة من سطح البحر. وكان غضب الإعصار وظلمة الليل، التي تخلّلها برقٌ ورعد، قد أمات جميع أفراد الطاقم غرقى. كلّهم ما عدا واحدًا. الناجي الوحيد من تلك المأساة هو مهندسٌ، عزم على السكن في البلدة امتنانًا للعناية التي أنقذت حياته، حيث شيَّدَ منارةً كبيرة على قمّة الجرف الوِعر لتهيمن على المشهد في خلال الليل. بات ذاك الرجل عجوزًا آنذاك، وما زال يعمل حارسًا للمنارة، وهو «الجدّ المتبنّي» لرولاند. فبعد حادثة الغرق، نقله زوجان إلى مستشفى البلدة واعتنيا به ريثما تماثل للشفاء كلّيًا. وبعد عدّة أعوام لقيا حتفهما

في حادث سير، فاعتنى حارس المنارة بالطفل رولاند الذي لم يتجاوز عامه الأوّل بعد.

كان رولاند يسكن معه في بيت المنارة، مع أنّه يقضي جلّ وقته في الكوخ الذي بناه على الشاطئ، أسفل الجرف.

وكان يعتبر الحارسَ جدَّه الحقيقيّ من جميع النواحي. فصوت رولاند يشي بمرارةٍ حين يروي تلك القصّة، التي أصغى إليها ماكس بصمت، دون أن يطرح أيَّ سؤال. تمشَّيا بعدئذٍ في الطرقات بجانب الكنيسة القديمة، حيث تعرَّف ماكس على بعض السكّان، وكانوا ودودين يسارعون للترحيب به في البلدة.

وفي النهاية، بعد أن أُنهِكَ قرّرَ ماكس أن لا ضرورة لمعرفة أهالي البلدة كلّها في أصبوحةٍ واحدة: فعلى ما يبدو أنّ لديه كلَّ الوقت لاكتشاف ألغازها، هذا إن وُجِدَت.

- هذا صحيحٌ أيضًا. - وافقه رولاند - اسمع، إنّني في كلّ صباحات الصيف تقريبًا، أذهب لممارسة الغوص في السفينة الغارقة. هل تودّ المجيء معي غدًا؟

- إن كنتَ تغوص تحت الماء مثلما تقود الدرّاجة، فسوف تغرقني لا محالة. - قال ماكس.

- لديَّ نظّارة وزوجٌ إضافيٌّ من الزعانف. - فسّر رولاند.

كان العرض مغريًا.

- موافق. هل عليَّ أن آتي بشيء؟

هزّ رولاند رأسه نافيًا.

- سآتي بكلّ شيء. حسنًا، الآن إذ أفكِّر في الأمر، لا مانع بأن تأتي بما يؤكل. سأعرّج عليك في التاسعة.

- التاسعة والنصف.

- لا تنم.

أخذ ماكس يتدرّج باتّجاه البيت، وكانت أجراس الكنيسة تقرع الثالثة والشمس تختبئ خلف عباءة الغيوم الداكنة التي تتوعّد بالمطر. وبينما كان يبتعد، التفت لينظر إلى الخلف برهةً. فرأى رولاند يودّعه بيده واقفًا بجانب درّاجته.

*

انهالت العاصفة على البلدة مثل مشهدٍ مشؤومٍ يليق بمدينة ملاهٍ متنقّلة. وفي غضون دقائق، تحوّلت السماء إلى قبّةٍ رصاصيّة وتلوَّن البحر بصبغةٍ معدنيّةٍ غبشاء، كأنّه صفيحة شاسعة من الزئبق. وانبلجت أوائل البروق مصحوبةً بريحٍ عاتية تدفع الإعصارَ من البحر. تدرَّجَ ماكس مستعجلًا، لكنّ انهمار المطر الغزير دهمه حينما كان على مسافة خمسمئة متر عن بيت الشاطئ. وعندما وصل إلى السياج الأبيض أمسى مبلّلًا كما لو أنّه خرج من البحر توًّا. ركض ليركن الدرّاجة في المرأب ويدخل إلى البيت من باب الفِناء الخلفيّ. كان المطبخ مقفرًا، على أنَّ عطرًا شهيًّا يحوم في أرجائه. وجد ماكس على الطاولة طبقًا فيه شطائر من اللحم وإناء من عصير الليمون المصنوع في البيت. وفي الجوار، ثمّة بطاقةٌ كُتِبَ عليها بخطّ أندريا كارڤر المنمّق:

ماكس، هذا غداؤك. أبوك وأنا سنكون في البلدة طوال

الظهيرة من أجل مسائل متعلّقة بالبيت. إيّاك أن يخطر في بالك استخدام الحمّام في الطابق الأعلى. إيرينا معنا.

وضع البطاقة وقرّر أن يحمل الطبق إلى غرفته. سبَّبَ له الماراثون الدرّاجيّ الصباحيّ إعياءً وجوعًا. كان البيت يبدو فارغًا. أليسيا ليست هناك، أو ربّما في غرفتها. اتّجه ماكس إلى غرفته مباشرةً، بدَّلَ ملابسه وتمدّدَ على السرير يتلذّذ بالشطائر الشهيّة التي أعدَّتها له أمّه. كان المطر في الخارج يضرب بشدّة والرعود ترجرج النوافذ. أضاء المصباح الصغير على الدُّرج وأمسك الكتاب الذي يتحدّث عن كوبرنيكوس الذي أهداه له ماكسيمليان. قرأ المقطع نفسه أربع مرّات حين أدرك أنّه يتوق للذهاب إلى الغوص حتّى السفينة الغارقة مع صديقه الجديد رولاند. ابتلع الشطائر بأقلّ من عشر دقائق وأغمض عينيه، منصتًا إلى نقر المطر على السطح والزجاج. كان يحبّ المطر وصوت الماء وهو يجري في المزراب.

وعندما تمطر بقوّة، يشعر ماكس أنّ الزمن يتوقّف. كما لو أنّها هدنةٌ نتوقَّف فيها عن فعل أيّ شيء لمجرّد التأمُّل من إحدى النوافذ في مشهد الستارة اللامتناهية من دموع السماء لساعاتٍ وساعات. وضع الكتاب على الدُّرج وأطفأ الضوء. واستسلم للنعاس رويدًا رويدًا، مطوَّقًا بصوت المطر المنوِّم.

الفصل الخامس



أيقظته أصوات العائلة في الطابق السفليّ وإيرينا التي تلعب على السلالم صعودًا هبوطًا. كان الظلام مخيّمًا، لكنّ ماكس استطاع أن يرى انقضاء العاصفة التي خلّفت وراءها سجّادةً من نجومٍ في السماء. ألقى نظرةً على الساعة ولاحظ أنّه نام ستّ ساعاتٍ تقريبًا. وكان ينهض فإذا بهم يطرقون بابه.

- حانت ساعة العشاء، أيّتها الحسناء النائمة. - صاح ماكسيمليان كارفر بصوته المبتهج.

تساءل ماكس عن سرّ انشراح أبيه في تلك اللحظة. وسرعان ما تذكَّرَ أمر العرض السينمائيّ الذي كان قد تعهَّدَ به في الصباح على الفطور.

- سأنزل فورًا. - أجاب وهو يتحسّس طعم شطائر اللحم اللذيذة في فمه.

- هذا خيرٌ لك. - ردّ الساعاتيّ وهو عائدٌ إلى الطابق السفليّ.

لم يكن لماكس أدنى شهيّة للطعام، ومع ذلك نزل إلى المطبخ وجلس إلى الطاولة صحبة بقيّة العائلة. كانت أليسيا تمعن النظر في صحنها، دون أن تمسَّهُ حتّى. بينما كانت إيرينا تلتهم حصّتها بتلذُّذ وتغمغم بكلماتٍ غير مفهومة مخاطبةً قطّها المكروه، الذي يحدِّق إليها ثابتًا بين قدميها. تعشّى الجميع بهدوء فيما كان ماكسيمليان كارڤر يفصِّل أنّه وجد في البلدة محلًّا ممتازًا لافتتاح الورشة واستئناف أعماله.

- وأنت، ماذا فعلتَ يا ماكس؟ - سألته أندريا كارڤر.

- كنتُ في البلدة. - نظر إليه الجميع كمن ينتظر مزيدًا من التفاصيل - تعرّفتُ على فتىً، رولاند. سنذهب معًا للغوص في الغد.

- ماكس وجد صديقًا بهذه السرعة. - هتف ماكسيمليان كارڤر بنبرة الظافرين - أرأيت؟ سبق أن أخبرتك...

- وكيف هو رولاند هذا، يا ماكس؟ - سألته أندريا كارڤر.

- لا أدري. لطيف. يعيش مع جدّه، حارس المنارة. أطلعني على كثيرٍ من الأشياء في البلدة.

- وأين ستمارسان رياضة الغوص؟ - سأله أبوه.

- في الشاطئ الجنوبيّ، في الجانب الآخر من المرفأ. فعلى حدّ زعم رولاند، هناك حطام سفينة غارقة منذ عدّة أعوام.

- هل بإمكاني الانضمام إليكما؟ - قاطعته إيرينا.

- كلا. - اختصرت أندريا كارڤر الحديث - أليس خطيرًا يا ماكس؟

- أمّاه. . .

- حسنًا. - وافقت أندريا كارڤر - ولكنْ توخَّ الحذر.

أومأ ماكس.

- أنا، في شبابي، كنتُ غطَّاسًا ماهرًا. - بادر ماكسيمليان كارڤر.

- أمّا الآن فلا يا عزيزي. - قاطعته زوجته - ألم تكن تودّ أن ترينا الأفلام؟

رفع ماكسيمليان كتفيه مستخفًّا ونهض، مستعدًّا لإبراز قدراته الإبصاريّة.

- تعال لمساعدة أبيك يا ماكس.

وقبل أن يفعل ما طُلِبَ منه بلحظة، نظر بطرف عينه إلى أليسيا التي لم تفه بكلمة طوال العشاء. بدت نظرتها الشاردة تؤكّد على مدى انطوائها وانفصالها عن المكان، غير أن لا أحد كان يلاحظ ذلك، أو ربّما لا يفضّلون، ولم يفهم ماكس سببًا لهذا التجاهل. بادلته أليسيا النظرة برهةً. فحاول أن يبتسم لها.

- هل تودّين المجيء معنا غدًا؟ - عرض عليها - سيعجبكِ رولاند.

ابتسمت أليسيا ابتسامةً واهنة، وأومأت بالموافقة من دون أن تقول كلمةً واحدة، في حين لمعت ومضةُ نورٍ في عينيها الداكنتين العميقتين.

*

- كلُّ شيء جاهز. أطفئوا الأضواء. - قال ماكسيمليان

كارڤر وهو ينتهي من إدخال الشريط في البكرة. وكان الجهاز يبدو منحدرًا من زمن كوبرنيكوس، ما جعل ماكس يشكّ في أنّه سيشتغل حقًّا.

- ما الذي سنشاهده؟ - تحرَّت أندريا كارڤر، وهي تحتضن إيرينا بين ذراعيها.

- ليس لديّ أدنى فكرة. - اعترف الساعاتيّ - ففي المرأب صندوقٌ يحوي عشرات الأشرطة من دون شروحٍ لأيٍّ منها. أخذتُ شريطًا بلا تعيين. لن أستغرب إن كان لا يعرض شيئًا. إذ إنَّ مستحلبات السيلوليد تُتلَفُ بسهولة، والاحتمال الأكبر بعد كلّ هذه السنوات أن تكون قد انفصلت عن الشريط.

- وماذا يعني هذا؟ - قاطعته إيرينا - ألن نشاهد شيئًا؟

- ثمّة طريقة واحدة لاكتشاف ذلك. - ردّ ماكسيمليان كارڤر وهو يدوِّر قاطع العارض.

وفي غضون ثوانٍ، استعاد الجهازُ الحياةَ بفرقعةٍ تشبه محرّك الدرّاجة الناريّة القديمة، واجتازت الحزمةُ المتذبذبةُ الصالةَ مثل رمحٍ من نور. ركّزَ ماكس أبصاره على المستطيل المعروض على الجدار الأبيض. كان كمن ينظر إلى داخل مصباحٍ سحريّ، حيث لا يعرف المرء بدقّةٍ أيَّ رؤىً ستنبجس من ذلك الاختراع. حبس أنفاسه وما لبث الجدار أن غرق بالصور.

*

استغرق الأمر ثواني معدودة لكي يفهم ماكس أنّ ذلك الشريط لا ينحدر من مستودع سينما قديمة. لم تكن نسخةً عن فيلمٍ شهير،

ولا حتّى شريطًا ضائعًا من سلسلة أفلامٍ صامتة. كانت الصور المشوّشة والمخدوشة بفعل الزمن تفصح بوضوحٍ عن هواية مَن يلتقطها. مجرّد فيلمٍ منزليٍّ بسيط، أغلب الظنّ أنّه من إخراج صاحب البيت السابق قبل أعوام، الدكتور فليشمان. توقَّعَ ماكس أنّ الأمر ذاته ينطبق على بقيّة اللفائف التي عثر عليها والده في المرأب بجانب العارض. وهكذا تداعت أوهام ماكسيمليان كارڤر بإيجاد نادٍ سينمائيّ خاصّ في أقلّ من دقيقة واحدة.

كان الشريط يعرض بطريقةٍ رديئة نزهةً في أرجاء ما يشبه الغابة. وقد التُقِطَت المشاهِدُ بينما كان المصوِّر يمشي ببطءٍ بين الأشجار لذا جاءت الصورة مهزوزةً، بتغييراتٍ ضوئيّةٍ متخبّطة وتسليطٍ غير مدروس بحيث إنّها لا تسمح بالتعرّف إلى المكان الذي أجريت فيه تلك النزهة الغريبة.

- ما هذا؟ - هتفت إيرينا، وقد اتّضح الإحباط على وجهها، وهي تنظر إلى أبيها الذي يشاهد الفيلم الغريب ممتعضًا، منذ أوّل دقيقةٍ من العرض الذي بدا أنّه مملٌّ بشكلٍ لا يُصدَّق.

- لا أدري. - غمغم ماكسيمليان كارڤر، حزينًا - لم أكن أتوقّع ذلك...

وكان ماكس قد بدأ يفقد اهتمامه بالفيلم، فإذا بشيءٍ مّا يستدعي انتباهه في شلّال الصور الفوضويّ.

- ماذا لو جرَّبَتَ شريطًا آخر يا عزيزي؟ - اقترحت أندريا كارڤر، في محاولةٍ لإنقاذ أوهام زوجها بخصوص عثوره على أرشيفٍ سينمائيٍّ مزعوم في المرأب.

- انتظر. - قاطعها ماكس، حين تعرَّفَ في الفيلم على جانبٍ مألوف.

كانت العدسة آنذاك تخرج من الغابة، وتتقدّم نحو ما بدا مجالًا مغلقًا بأسوارٍ حجريّةٍ عالية، وبوّابةٍ ذات قضبانٍ حديديّة كالرماح. وكان ماكس يعرف ذلك المكان؛ لقد زاره في اليوم السابق. ذُهِلَ وهو يلاحظ كيف أنّ آلة التصوير تتعثّر قليلًا قبل أن تلج إلى حديقة التماثيل.

- يبدو أنّها مقبرة. - غمغمت أندريا كارڤر - ما هذا المكان؟

سارت العدسة بضعة أمتار في داخل الحديقة، التي لم تكن تبدو في الفيلم مهجورةً مثلما اكتشفها ماكس. لا أثر للأعشاب الضارّة وكان سطح الأرضيّة الحجريّة لامعًا ونظيفًا، كما لو أنّ حارسًا دؤوبًا كان يعتني بالمكان ويحافظ على طهارته ليلًا نهارًا.

توقّفت العدسة عند كلٍّ من التماثيل المتمركزة على النقاط الأساسيّة للنجمة الكبيرة التي بالإمكان رؤيتها بوضوح تحت أقدام تلك الأشكال. تعرَّفَ ماكس إلى الوجوه الحجريّة البيضاء وما أُلبِسَتْ به من أزياء فنّانين في سيركٍ متنقّل. ثمّة ما يثير القلق من انضغاط أجساد تلك الأشكال الشبحيّة ووضعيّاتها وعبوسها المسرحيّ الماثل على وجوهها المختبئة خلف جمودٍ يبدو أنّه ظاهريٌّ ليس إلّا.

أظهر الفيلم أعضاء فرقة السيرك من دون تقطيع. تمعّنت العائلة بتلك الرؤية الشبحيّة في صمت، لا صوت إلّا التشويش المتذمّر الصادر عن جهاز العرض.

وفي النهاية، اتّجهت آلة التصوير إلى مركز النجمة المنقوشة على سطح الحديقة. أبرزت الصورة الجانب المعتم من وجه المهرّج المبتسم، الذي تتحلّق حوله كلُّ التماثيل الأخرى. دقّقَ ماكس بتقاسيم ذلك الوجه وأحسَّ مرّةً ثانية بالرعشة ذاتها التي راودته عندما وجد نفسه قبالته. ثمّة شيءٌ في الصورة لا يتوافق مع ما كان ماكس يذكره من زيارته الحديقة، غير أنّ رداءة الفيلم حالت دون حصوله على رؤيةٍ جليّةٍ للتمثال بأكمله قد تسمح له باكتشاف ماهيّته. ظلّت عائلة كارڤر صامتةً بينما مرّت دقائق الفيلم الأخيرة تحت حزمة العارض. أطفأ ماكسيمليان كارڤر الجهاز وأشعل الضوء.

- جاكوب فليشمان. - غمغم ماكس - هذه أفلام جاكوب فليشمان.

أومأ والده بصمت. انتهى العرض وشعر ماكس لعدّة لحظاتٍ أنّ حضور ذلك المدعوّ الخفيّ، الغريق على بُعد أمتارٍ عن هناك، عند الشاطئ، قبل عشرة أعوامٍ تقريبًا، كان ماثلًا في كلّ زاوية من زوايا البيت، وكلّ عتبة من عتبات السلالم، ويُشْعِرُهُ بأنّه دخيلٌ على المكان.

بدأ ماكسيمليان كارڤر بتفكيك العارض، دون أن يفوه بكلمة، بينما أخذت أندريا كارڤر ابنتها إيرينا بين ذراعيها وصعدت بها السلالم لتضعها في السرير.

- هل لي أن أنام معكِ؟ - سألتها إيرينا وهي تعانقها.

- دع عنك هذا. - قال ماكس لأبيه - سأوضّبه بنفسي.

ابتسم ماكسيمليان لابنه وربَّتَ على كتفه وأومأ برأسه.

- ليلة هانئة يا ماكس. - ثمّ التفت إلى ابنته - ليلة هانئة يا أليسيا.

- ليلة هانئة يا أبي. - أجابت أليسيا، وهي ترى والدها يصعد السلالم معبِّرًا عن تعبه وإحباطه.

وحالما تلاشت خطوات الساعاتيّ، حدّقت أليسيا إلى ماكس.

- عدني بألّا تقول لأحدٍ ما سأخبرك به.

أومأ ماكس.

- أعدكِ. ما الأمر؟

- المهرّج. الذي في الفيلم. - بادرت أليسيا - لقد رأيته مسبقًا. في الحلم.

- متى؟ - سألها ماكس، وشعر بتسارع نبضه.

- في الليلة ما قبل انتقالنا. - ردّت شقيقته.

جلس ماكس قبالة أليسيا. كان من الصعب قراءة الانفعالات على وجهها، لكنّه لمح ظلال الذعر تسجو عينيها.

- اشرحي أكثر. - شجّعها - ما الذي حلمتِ به بالضبط؟

- كان غريبًا، لكنّه في الحلم... لا أدري... كان مختلفًا. - قالت أليسيا.

- مختلفًا؟ - سألها ماكس - كيف؟

- لم يكن مهرّجًا. لا أدري. - ردّت، وهي ترفع كتفيها،

كمن لا يودّ إعطاء أهمّيّةٍ للأمر، مع أنّ صوتها كان يشي بمخاوفها

- هل تظنّ أنّ لهذا معنىً مّا؟

- لا. - كذَبَ ماكس - من الوارد أن لا معنى له.

- أستبعد ذلك. - أكّدت أليسيا - وماذا بخصوص الغد، أما زالت الدعوة إلى الغوص سارية؟

- بالتأكيد. هل أوقِظكِ؟

ابتسمت أليسيا لأخيها الأصغر. هي المرّة الأولى التي يراها فيها ماكس تبتسم منذ أشهر، ربّما سنوات.

- سأكون مستيقظة. - أجابت وهي تتّجه نحو غرفتها - ليلة هانئة.

- ليلة هانئة. - قال ماكس.

انتظر أن يسمع انغلاق باب غرفة أليسيا وجلس على الأريكة في الصالة، بجانب العارض. استطاع من مكانه أن يسمع أبويه يهمهمان في غرفتهما. وغرق البيت في الصمت الليليّ، الذي لا يشوبه إلّا صوت البحر إثر تلاطمه على الشاطئ. لاحظ ماكس أنّ أحدًا يراقبه من أسفل السلالم. عينان مائلتان إلى الصفرة ولامعتان تحدّقان إليه. إنّه قطّ إيرينا. ردَّ عليه النظرة بمثلها.

- اغرب عن وجهي. - أمره.

وما زال القطّ يرمقه بنظرة حادّة ثمّ اختفى في الظلّ. نهض ماكس وأخذ يوضّب العارض والشريط. فكّر أن يعيد الجهاز إلى المرأب، لكنّ فكرة الخروج في قلب الليل لم تبدُ له مغريةً تمامًا. أطفأ أضواء البيت وصعد إلى غرفته. خطف نظره من النافذة نحو

حديقة التماثيل، التي لا يمكن تمييزها في ظلام الليل. استلقى على السرير وأطفأ المصباح على الدُّرج.

وبخلاف ما توقَّعَهُ ماكس، لم تكن الصورةُ الأخيرةُ التي مرّت في ذهنه قبل أن يغطّ في النوم عائدةً إلى تلك النزهة السينمائيّة المشؤومة في حديقة التماثيل؛ إنّما ابتسامة أليسيا غير المتوقَّعة قبل دقائق في الصالة. كانت الحركة في ظاهرها خاليةً من أيّ معنى، لكنّ ماكس ولسببٍ لم يفهمه أدرك أنّ بابًا قد انفتح بينهما، وأنّ شقيقته منذ تلك الليلة فصاعدًا لم تعد تبدو له شخصًا غريبًا.

الفصل السادس



استيقظت أليسيا قُبَيْلَ الفجر، وتراءت لها من خلف زجاج النافذة عينان صفراوان تحدّقان إليها. جفلت عن سريرها، فاختفى قطُّ إيرينا عن حافة النافذة، بلا عجالة. كانت تكره ذلك الحيوان، وسلوكه الفظّ ورائحته الثاقبة التي تسبقه وتعلن عن وصوله قبل أن يدخل إلى أيّ غرفة. ولم تكن تلك المرّة الأولى التي تفاجئه متلبّسًا بمراقبتها خلسةً. فمنذ نجحت إيرينا في الإتيان به إلى بيت الشاطئ، لاحظت أليسيا أنّ الحيوان غالبًا ما يظلّ متحجّرًا عدّة دقائق، متربّصًا، يتجسّس على تحرُّكات أحد أفراد العائلة من عتبة باب أو مختبئًا تحت الظلام. وكانت الفتاة في سرّها ترجو أن يجهز عليه كلبٌ ضالٌّ أثناء إحدى جولاته الليليّة.

*

في الخارج، كانت السماء تفقد صبغتها الأرجوانيّة التي ترافق الفجر دومًا، فيما تلوح أشعّة الشمس الأولى فوق الغابة ما وراء حديقة التماثيل. ما زالت هناك ساعتان على الأقلّ ريثما يعرِّج

صديق ماكس لاصطحابهما. تلحَّفت أليسيا بالأغطية من جديد، وإذ كانت موقنةً من أنّها لن تغفو أغمضت عينيها وأصغت إلى صوت البحر البعيد وهو يتلاطم عند الشاطئ.

بعد ساعة، دقّ ماكس بابها برفق.

نزلت أليسيا السلالم على رؤوس أصابعها. كان ماكس وصديقه ينتظرانها عند المستراح. توقّفت لحظةً في المدخل قبل أن تخرج، وسمعت صوت الشابّين وهما يدردشان. التقطت نفسًا عميقًا وفتحت الباب.

كان ماكس مستندًا إلى سياج المستراح، فالتفت وابتسم. وكان بجانبه فتىً مسمرُّ الجلد كثيرًا وشعره مائلٌ إلى الشقرة، وأطول منه قامةً بشبرٍ تقريبًا.

- هذا هو رولاند. - بادر ماكس - وهذه شقيقتي أليسيا يا رولاند.

أومأ الفتى باحترام وحَرَفَ بصره نحو الدرّاجتين، لكنّ ماكس لم تَفُتْهُ لعبة النظرات التي أجريت لبضعة أعشار من الثانية بين أليسيا وصديقه. ابتسم في سرّه وفكّرَ في أنّ كلَّ شيء سيكون أكثر إمتاعًا ممّا توقَّعه.

- كيف سنتدبّر أمرنا؟ - سألت أليسيا - ثمّة درّاجتان فقط.

- أعتقد أنّ رولاند بوسعه أن يقلَّكِ على درّاجته. - ردّ ماكس - أليس كذلك يا رولاند؟

ثبَّتَ الفتى نظره في الأرض.

- أجل، بالتأكيد. - غمغم - شرط أن تأتي أنت بالعدّة.

ربط ماكس، على خلفيّة درّاجته، عُدّةَ الغوص التي جاء بها صديقه. كان يعرف أنّ في المرأب درّاجةً أخرى، لكنّه راق لفكرة أن يقلّ رولاند شقيقتَه. جلست أليسيا على الحديدة وتشبّثت بعنق رولاند. لاحظ ماكس أنّ الفتى كان يقاوم كي لا يحمرَّ خجلًا من تحت جلده المسمرّ.

- مستعدّة. - قالت أليسيا - آمل أنّني لستُ ثقيلةً أكثر من اللازم.

- هيّا! - أعلن ماكس وأخذ يتدرّج على امتداد طريق الشاطئ، متبوعًا بهما.

وما لبث أن تجاوزه رولاند، فتعيَّنَ على ماكس مرّةً أخرى أن يجهد لئلا يتخلّف عنهما.

- هل أنتِ على ما يرام؟ - سأل رولاند أليسيا.

فأومأت ونظرت إلى بيت الشاطئ وهو يتلاشى في البعيد.

*

كان الشاطئ في الناحية الجنوبيّة، من الجانب الآخر للمرفأ، يشكّل هلالًا ممتدًّا ومهجورًا. لم يكن رمليًّا، إنّما مكوَّنٌ من حصى صغيرة صقلها البحر، وزاخرٌ بالقواقع والفضلات البحريّة التي يتركها الموجُ والمدُّ لتجفَّ تحت الشمس. وفي أعقاب الشاطئ، ينهض عموديًّا جدارٌ مهدَّم، يتربّع على قمّته برجُ المنارة كئيبًا ومعزولًا.

- ها هي منارة جدّي. - أشار الفتى بينما كانوا يتركون

الدرّاجتين عند منفذ أحد الدروب الهابطة بين الصخور حتّى الشاطئ.

- هل تعيشان كلاكما هناك؟ - سألته أليسيا.

- تقريبًا. - أجاب رولاند - مع مرور الوقت شيّدتُ كوخًا صغيرًا هنا على الشاطئ، ويمكننا أن نقول إنّه بيتي.

- كوخك؟ - تحرَّت أليسيا، وهي تحاول تحديد موقعه بنظرها.

- لا يُرى من هنا. - أوضح رولاند - في الحقيقة كان مخزنًا قديمًا للصيّادين وقد هجروه. فوضَّبتُه وصار في حالٍ جيّدة الآن. سترينه.

اقتادهما إلى الشاطئ، وما إن وصلوا حتّى نزع صندله. كانت الشمس عاليةً في السماء، والبحر يلمع مثل فضّةٍ سائلة. وكان الشاطئ مقفرًا، ينعم بالنسائم المحمَّلة برائحة الملح في هبوبها من جهة المحيط.

- حذار من هذه الصخور. أنا معتاد، لكنّ مَن ليست له خبرة يسقط بسهولة.

تبعه ماكس وأليسيا حتّى الكوخ. كان أشبه بالكشك الخشبيّ الملوّن بالأحمر والأزرق. له مستراحٌ صغير، ورأى ماكس فانوسًا صدئًا يتدلّى من جنزير.

- هذا من السفينة. - فسَّرَ رولاند - وجدتُ في الأسفل أشياء كثيرة وأتيتُ بها إلى الكوخ. ما رأيكما؟

- رائع. - هتفت أليسيا - هل تنام هنا؟

- أحيانًا، لاسيّما في الصيف. أمّا في الشتاء، ناهيك بالبرد، لا أفضّل أن أترك جدّي وحيدًا.

فتح رولاند الباب وأفسح المجال لأليسيا وماكس.

- تفضَّلا. مرحبًا بكما في القصر.

كان داخل الكوخ يبدو جزءًا من تلك الأسواق العتيقة حيث تُباع الأثريّات البحريّة. إذ إنّ الغنيمة التي استلبها الفتى من البحر كانت تتلألأ في الظلمة مثل متحف كنوزٍ غرائبيّةٍ وأسطوريّة.

- مجرَّدُ خردة. - قال رولاند - لكنّني أواظب على جمعها. لعلّنا اليوم نعثر على شيء.

وكان ما تبقّى من الكوخ مكوّنًا من خزانة قديمة، طاولة، وبعض الكراسي، وفراش يعتليه رفٌّ بعدّة كتب ومصباح زيت.

- كم أتمنّى أن يكون لي منزلٌ كهذا. - قال ماكس.

ابتسم رولاند، متشكّكًا.

- نقبل العروض. - مازحه، وكان من الواضح أنّه معتزٌّ بالانطباع الذي ولّده الكوخ في نظر صديقيه - حسنًا، والآن إلى الماء!

تبعاه إلى الشاطئ، حيث أخذ يفرّغ الكيس الذي يحوي عدّة الغوص.

- السفينة على بُعد خمسة وعشرين أو ثلاثين مترًا عن اليابسة. هذا الشاطئ أعمق ممّا يبدو، فبعد ثلاثة أمتار لا يمكنك ملامسة القاع. وهيكل السفينة على عمق عشرة أمتار. - فسَّرَ رولاند.

تبادل ماكس وأليسيا نظرةً تشرح نفسها بنفسها.

- أجل، لا يُنصَح الوصول إلى الأسفل من المرّة الأولى. إذا كان البحر مرتفعًا، تتشكّل دوّامات وقد يكون الوضع خطيرًا. ذات مرّة تملّكني رعبٌ فظيع.

أعطى رولاند لماكس نظّارة وزعانف.

- جيّد. عُدّة الغوص لا تكفي إلّا شخصين. مَن سيغطس أوّلًا؟

أشارت أليسيا إلى ماكس بإصبعها.

- شكرًا. - غمغم ماكس.

- لا تقلق يا ماكس. - طمأنه صديقه - لكلّ شيءٍ بداية. ففي المرّة الأولى كدتُ أموت هلعًا. رأيتُ ثعبانًا مائيًّا ضخمًا يخرج من إحدى المداخن.

- ماذا؟ - ذُعِرَ ماكس.

- لا شيء. - أجاب رولاند - كنت أمزح. لا وجود لوحوشٍ في الأسفل. أقسم لك على ذلك. وهذا غريب، ففي العادة تتحوّل السفن الغارقة إلى ما يشبه حديقة أسماك. إلّا هذه. أتخيّل أنّها لا تعجب السمك. لستَ خائفًا، صحيح؟

- خائف؟ - قال ماكس - أنا؟

ومع أنّه كان منهمكًا في ارتداء الزعانف، لاحظ أنّ رولاند يجري تصويرًا شعاعيًّا دقيقًا لشقيقته وهي تنزع ثيابها القطنيّة لتبقى بلباس السباحة الأبيض، الوحيد الذي كان لديها. نزلت أليسيا في الماء حتّى وصلت إلى الركبتين.

- اسمع. - همس لصديقه - إنّها أختي، وليست كعكة. مفهوم؟

رماه رولاند بنظرة تواطؤ.

- أنت مَن جاء بها، لا أنا. - ردّ بابتسامةٍ ماكرة.

- إلى الماء! - اختصر ماكس - هذا خيرٌ لك.

التفتت أليسيا ورأتهما بلباس الغوص، بتعبيرٍ ساخر.

- يا لها من وجوه! - قالت ولم تستطع أن تتمالك ضحكتها.

تبادل ماكس ورولاند نظرةً من وراء النظّارات.

- شيءٌ أخير. - شدَّدَ ماكس - لم أفعلها من قبل على الإطلاق. أقصد الغوص. سبحتُ في المسبح، هذا صحيح، لكنّي لستُ متأكّدًا من قدرتي...

زاغت عينا رولاند.

- هل تعرف كيف تتنفّس تحت الماء؟ - سأله.

- قلت إنّني لا أعرف الغوص، لا أنّني غبيّ. - ردّ ماكس.

- إن كنتَ قادرًا على حبس أنفاسك تحت الماء، فهذا يعني أنّك تعرف الغوص. - أوضح رولاند.

- توخَّيا الحذر. - قالت أليسيا - اسمع يا ماكس، هل أنت واثقٌ من أنّها فكرةٌ سديدة؟

- لن يحدث شيء؟ - طمأنها رولاند، والتفت نحو ماكس وربَّتَ على كتفه - تفضَّلْ أوّلًا، أيّها القبطان نيمو.

*

غطس ماكس تحت سطح البحر للمرّة الأولى في حياته، واكتشف كيف يتّسع أمام عينيه المذهولتين كونٌ من الأضواء والظلال التي تتعدّى حدود مخيّلته. كانت أشعّة الشمس تتسرّب مثل ستائر نورٍ ضبابيّة تتموّج ببطء، ويصبح السطح مرآةً غبشة ومتراقصة. حبس أنفاسه بضع ثوانٍ إضافيّة، ثمّ عامَ من جديدٍ بحثًا عن الهواء. وكان رولاند على بُعد مترين عنه، يراقبه بعناية.

- هل أنت بخير؟ - سأله.

أومأ ماكس متحمّسًا.

- أرأيتَ؟ إنّها سهلة. اسبح بجانبي. - دعاه رولاند قبل الغطس ثانيةً.

وجَّهَ ماكس نظرةً أخيرة إلى اليابسة ورأى أليسيا تحيّيه مبتسمةً. ردَّ التحيّة وسارع إلى السباحة بجانب صديقه نحو البحر المفتوح. اقتاده رولاند حتّى النقطة التي يبدو منها الشاطئ بعيدًا، مع أنّ ماكس يعرف أنّ المسافة الفاصلة لا تتجاوز الثلاثين مترًا. لكنّ المسافات تتضاعف إذا قُدِّرَت من مستوى البحر. لمس رولاند ذراعه وأشار إلى العمق. سحب ماكس نفسًا وغاص برأسه في الماء، وهو يعدّل النظّارة. استغرقت عيناه ثانيتين لتتآلفا مع عتمة القاع الواهنة. وحينذاك استطاع التمتُّع بمنظر السفينة الغارقة، المائلة إلى أحد جانبيها، مغمورةً بضوءٍ شبحيٍّ خياليّ. لا بدّ أنّ طولها خمسون مترًا، وربّما أكثر، وفيها صدعٌ عميقٌ مفتوحٌ من مقدّمتها إلى قعرها. كان ذلك الأثر بمثابة جرحٍ داكنٍ لا

قرار له مشروخًا بمخالب صخريّة حادّة. وعند المقدّمة، تحت طبقةٍ نحاسيّة اللون من صدأ وطحالب، يُقرَأ اسم السفينة: «أورفيوس».

كانت سفينة أورفيوس تعطي انطباعًا بأنّها لشحن البضائع، لا لنقل المسافرين. وكان حديدها الممتلئ بالصدوع مخدَّدًا بطحالب صغيرة، إلّا أنّه وكما صرَّحَ رولاند لا وجود لأيّ سمكةٍ تسبح في أرجائها. قطع الصديقان هيكلها بالعوم على السطح، وكانا يتوقّفان مرّةً كلّ ستّة أمتارٍ أو سبعة للتمعُّن في تفاصيل حطامها. وكان رولاند قد قال إنّها توجد على عمق عشرة أمتار تقريبًا، لكنّ المسافة بدت لماكس سحيقةً للغاية. تساءل كيف استطاع رولاند أن يستخرج كلّ تلك الأغراض التي رآها في كوخه على الشاطئ. وكما لو أنّ صديقه قرأ أفكاره، فأشار له بانتظاره عند سطح الماء وغطس وهو يحرّك الزعانف بقوّة.

راقب ماكس رولاند وهو يهبط حتّى يلامس هيكل أوروفيوس برؤوس أصابعه. ثمّ تشبَّثَ بحذرٍ بحوافّ السفينة، وزحف حتّى وصل إلى المنصّة التي كانت في الماضي قُمرةَ القيادة. استطاع ماكس من موقعه أن يميّز عجلة الدفّة وأدوات أخرى في داخل القمرة. سبح رولاند حتّى بابها المحطَّم ودخل. أحسّ ماكس بغصّة قلق إذ رأى صديقَه يختفي في داخل السفينة الغارقة. ولم يحد عينيه عن ذلك الباب بينما كان رولاند يسبح داخل القُمرة، متسائلًا ماذا بوسعه أن يفعل إذا وقع مكروه. وبعد ثوانٍ قليلة خرج رولاند من القمرة وصعد ببطء نحوه، مخلِّفًا وراءه إكليلًا من

الفقاعات. أخرج ماكس رأسه وتنفَّسَ بعمق. تبدّى وجه صديقه على بُعد مترٍ عنه، بابتسامةٍ عريضةٍ تمتدّ من الأذن إلى الأخرى.

- مفاجأة! - هتف.

رأى ماكس شيئًا في يده.

- ما هذا؟ - سأله مشيرًا إلى الغرض المعدنيّ الغريب الذي عثر عليه رولاند في قُمرة القيادة.

- سُدْسيَّة.

قطَّبَ ماكس حاجبيه. لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا كان صديقه يقوله.

- السُّدْسيَّةُ جهازٌ يُستَخدم لتقدير موقع السفينة في البحر. - فسَّرَ رولاند، بصوتٍ لاهث لِما بذل من جهدٍ في حبس أنفاسه مدّة دقيقةً كاملة أو تكاد - سأغوص من جديد. احتفظ به من أجلي.

حاول ماكس أن يبدي اعتراضه، لكنّ رولاند غطس دون أن يمنحه الوقت لفتح فمه. فسحب نفسًا عميقًا وأغرق رأسه مجدّدًا ليتابع غوص رولاند، الذي سبح هذه المرّة على امتداد هيكل السفينة حتّى وصل إلى مؤخّرتها. زَعْنَفَ ماكس لمتابعة مسار صديقه. فرآه يقترب من كوّة ويحاول النظر إلى باطن السفينة. حبس ماكس أنفاسه حتّى شعر برئتيه تحترقان فنفث كلَّ الهواء، مِستعدًّا لإخراج رأسه والتنفُّس من جديد.

إلّا أنّ عينيه، في تلك الثانية الأخيرة، رأتا شيئًا جعله يتجمّد. ثمّة رايةٌ قديمةٌ مهترئة ومُنَسَّلة تتمايل في الأعماق المظلمة، مربوطة إلى إحدى صواري مؤخّرة الأورفيوس. تمعَّنَ

فيها ماكس باهتمام وتعرَّفَ على الشعار الممحوّ أو يكاد والذي ما زال يميّز الراية: نجمةٌ سداسيّة في قلب دائرة. اقشعرّ بدنه. كان قد رأى تلك النجمة سابقًا، على بوّابة حديقة التماثيل.

فلتت سُدْسيَّةُ رولاند من بين أصابعه وغرقت في الظلمات. سبح ماكس نحو الشاطئ لاهث الأنفاس، وكان عرضةً لرعبٍ غامض.

*

بعد نصف ساعة، كان رولاند وماكس جالسين في أفياء عتبة الكوخ، ينظران إلى أليسيا وهي تجمع القواقع القديمة ما بين حصى الشاطئ.

- هل أنت واثقٌ من أنّك رأيتَ ذلك الشعار سابقًا يا ماكس؟

هزّ رأسه بنعم.

- في بعض الأحيان تبدو الأشياء تحت الماء بما ليست عليه في الواقع. - بادر رولاند.

- متأكّدٌ ممّا رأيتُ. - قاطعه ماكس - مفهوم؟

- مفهوم. - وافقه رولاند - رأيتَ شعارًا تعتقد أنّه مشابهٌ للذي وجدتَه في ما يشبه المقبرة خلف بيتكم. وبعد؟

نهض ماكس ورمق صديقه.

- وبعد؟! هل ينبغي أن أعيد على مسامعك الحكاية كلَّها؟

كان قد أمضى الدقائق الخمسة والعشرين الأخيرة وهو يشرح لرولاند كلَّ ما رآه في حديقة التماثيل، إضافةً إلى فيلم جاكوب فليشمان القصير.

- لا داعي. - ردَّ رولاند بجلافة.

- فكيف يُعقَل أنّك لا تصدِّقني؟ - احتدمت نبرة ماكس - هل تظنّ أنّني ألَّفتُ كلَّ شيء؟

- لم أقل إنّي لا أصدِّقك. - أجاب رولاند موجِّهًا ابتسامةً ناعمة إلى أليسيا، التي عادت من نزهتها على الشاطئ محمَّلةً بكيسٍ مليء بالقواقع - هل حالفكِ الحظّ؟

- هذا الشاطئ عبارةٌ عن متحف. - ردّت أليسيا وهي تخشخش الكيس المعبَّأ بفرائسها.

زاغت عينا ماكس، نافدَ الصبر.

- هل تصدِّقني؟ - قاطعهما وهو يحدِّق إلى رولاند.

تحدَّى الصديق نظرته وظلّ صامتًا بضع ثوان.

- أصدِّقك يا ماكس. - غمغم وأحاد عينيه نحو الأفق، ولم يقوَ على إخفاء الحزن الذي ظلَّلَ وجهه. لاحظت أليسيا التغيُّر الذي طرأ على تعابير رولاند.

- ماكس يقول إنّ جدَّك كان مسافرًا على متن تلك السفينة في ليلة غرقها. - قالت وهي تحطّ يدها على كتف الفتى - أهذا صحيح؟

أومأ رولاند بتعبيرٍ مبهم.

- لقد كان الناجي الوحيد. - أجاب.

- ما الذي حدث؟ - سألته أليسيا - المعذرة. لعلَّك لا تودّ التحدّث بالأمر.

نفى رولاند برأسه وابتسم إلى الشقيقين.

- لا، لا يؤسفني. - كان ماكس ينظر إليه مترقِّبًا - ولستُ أنّني لا أصدِّق قصَّتك يا ماكس. الحال أنّها ليست المرّة الأولى التي يحدّثني فيها أحدٌ مّا عن ذلك الشعار.

- مَن رآه غيري؟ - سأله ماكس، مذهولًا - مَن حدَّثَك عنه؟

ابتسم رولاند.

- جدّي. عندما كنتُ صغيرًا. - أشار إلى داخل الكوخ - الطقس يزداد برودةً. فلندخل. سأروي لكما حكاية تلك السفينة.

*

ظنّت إيرينا في البدء أنّها سمعت صوت أمّها من الطابق الأسفل. كانت أندريا كارفر غالبًا ما تتحدّث بمفردها بينما تتجوّل في البيت ولا يتفاجأ أحدٌ من أفراد الأسرة من عادة الأمّ بمنح أفكارها صوتًا. لكنّ إيرينا بعد قليل، رأت أمّها من النافذة تودِّع ماكسيمليان كارفر إذ كان الساعاتيُّ يتهيّأ للذهاب إلى البلدة، يرافقه أحد الحمَّالَين اللذين ساعداه منذ أيّام في الإتيان بالحقائب من المحطّة. أدركت إيرينا أنّها كانت بمفردها في البيت في تلك اللحظة، ما يعني أنّ الصوت الذي خالت أنّها سمعته لا بدّ أن يكون إيهامًا. إلى أن سمعته مجدّدًا، في الغرفة تمامًا هذه المرّة، مثل همسةٍ تجتاز الجدران.

بدا الصوت آتيًا من الخزانة مثل غمغمةٍ بعيدة من المستحيل تمييز كلماتها. شعرت إيرينا بالخوف، للمرّة الأولى منذ وصلوا إلى بيت الشاطئ. حدَّقت إلى دفّة الخزانة الداكنة ورأت مفتاحًا في القفل. لم تتردّد إيرينا، ركضت نحو الأثاث ودوَّرت المفتاح

بعجالة حتّى أوصدت الدفّة. تراجعت خطوتين إلى الخلف وتنفّست بعمق. وسمعت ذلك الصوت ثانيةً حينذاك وفهمت أنّه لم يكن صوتًا واحدًا، إنّما أصواتٌ متعدّدة تتهامس في الوقت ذاته.

- إيرينا؟ - نادتها أمّها من الطابق الأسفل.

انتزعها صوت أندريا كارڤر الدافئ من الشرود الذي غطّت فيه. وراودها إحساسٌ بالطمأنينة.

- إيرينا، إن كنتِ في الأعلى، فانزلي لمساعدتي قليلًا.

كانت إيرينا في الأشهر الأخيرة لا ترغب كثيرًا في مساعدة أمّها، أيًّا كانت الواجبات التي تنتظرها. همَّت بالركض على السلالم، فإذا بها تشعر بما يشبه النسمة الجامدة تداعب وجهها وتخترق الغرفة بسرعة البرق، وانصفق الباب فجأةً. هرعت إيرينا نحو المدخل وتشبّثت بالمقبض الذي بدا أنّه عالق. وبينما كانت تكافح لفتح الباب بلا جدوى، سمعت وراء ظهرها أنّ مفتاح الخزانة يدور ببطءٍ حول نفسه، وأنّ تلك الأصوات التي بدت متصاعدة من أعماق البيت تتحوّل إلى ضحك.

*

- عندما كنت صغيرًا - أوضح رولاند - قصَّ عليَّ جدّي هذه الحكاية مرارًا حتّى إنّني حلمتُ بها طوال أعوام. بدأ كلُّ شيء عندما جئتُ لأعيش في هذه البلدة، قبل عدّة سنوات، بعد أن فقدتُ والديَّ في حادث سير.

- يؤسفني يا رولاند - قاطعته أليسيا، إذ فطنتْ أنّه على الرغم من إبداء استعداده لقصّ حكاية جدّه والسفينة بابتسامةٍ

لطيفة، فإنّ النبش في تلك الذكريات كان أصعب عليه ممّا أراد إظهاره.

- كنت صغيرًا جدًّا. بالكاد أذكرهما. - قال رولاند متجنِّبًا نظرة أليسيا التي لا يمكن خدعها بتلك الأكذوبة الصغيرة.

- فما الذي حدث عندئذ؟ - ألحَّ ماكس.

صعقته أليسيا بعينيها.

- تولّى جدّي رعايتي وانتقلتُ للسكن معه في منزل المنارة. كان مهندسًا ويراقب هذا الجزء من الساحل منذ أعوام. أوكلته البلديّة العمل على مدى الحياة، بعد أن شيَّد المنارة بيديه فعليًّا. حكايةٌ غريبة كما ستريان. في الثالث والعشرين من يونيو ١٩١٨ رسا جدّي في مرفأ ساوثمبتون على متن الأورفيوس، لكنّه كان متخفّيًا. فالأورفيوس لم تكن سفينة مسافرين، إنّما سفينة شحن سيّئة السمعة. كان قبطانها هولنديًّا وثملًا على الدوام وفاسدًا حتّى النخاع يؤجِّر السفينة لمَن يقدِّم العرض الأفضل. وكان زبائنه المفضّلون في العادة مهرّبين يسعون لاجتياز قناة المانش. وكانت الأورفيوس ذائعة الصيت لدرجة أنّ حتّى طاقم المدمِّرات الألمانيّة كانوا يعرفونها، ولم يدمِّروها حين كانوا يصادفونها في عرض البحر، بدافع الشفقة. بكلّ الأحوال، بدأت الأعمال تتضاءل مع نهاية الحرب، واضطرّ الهولنديّ الضالّ، كما لقّبه جدّي، أن يبحث عن صفقات مشبوهة أكثر لكي يسدّد ديون القمار المتراكمة في الأشهر الأخيرة. ويبدو أنّ القبطان في إحدى لياليه العاثرة الحظّ، التي تشكِّل الأغلبيّة، خسر حتّى قميصه في مباراةٍ مع رجلٍ

يدعى مستر قابيل. وكان السيّد قابيل هذا صاحب سيركٍ متنقّل. طلب من الهولنديّ، من باب التسوية، إركابَ الفرقة بأكملها على السفينة ونقلها إلى الجانب الآخر من القناة. لكنّ هذا السيرك المزعوم هو أكثر من مجرّد منصّة عرض. كان صاحبه مضطرًّا إلى الاختفاء في أقرب فرصة، وبطريقة غير مشروعة بطبيعة الحال. فوافق الهولنديّ. وماذا كان بوسعه أن يفعل؟ إمّا أن يوافق وإمّا أن يخسر السفينة.

- لحظة. - قاطعه ماكس - ما شأن جدّك بكلّ هذا؟

- هذا ما سأصل إليه. - تابع رولاند - كما قلتُ، كان المستر قابيل يخفي أشياء كثيرة، منها أنّ ذلك ليس اسمه الحقيقيّ. وكان جدّي يتعقّب أثره منذ أمد: بينهما حساباتٌ معلّقة. ففكّر جدّي أنّه في حال اجتاز المستر قابيل ورجاله المانش فقد تتبدّد إمكانيّة تصفيتها إلى الأبد.

- ألهذا صعد على متن الأورفيوس؟ - سأل ماكس - كالهاربين؟

أومأ رولاند.

- ثمّة أمرٌ لا أفهمه. - قالت أليسيا - لماذا لم يبلّغ الشرطة؟ إنّه مهندس، لا شرطيّ. ما طبيعة الحسابات المعلّقة بينه وبين المستر قابيل هذا؟

- هلّا سمحتما لي أن أكمل القصّة؟ - قال رولاند.

فأومأ ماكس وشقيقته معًا.

- جيّد. الحال أنّه ركب السفينة. - تابع رولاند - أبحرت

الأورفيوس في منتصف النهار وكانت تأمل الوصول إلى وجهتها في آخر الليل، لكنّ الأمور تعقّدت. فبعد منتصف الليل هبَّت عاصفةٌ أعادت السفينة إلى الساحل. ارتطمت الأورفيوس بالصخور وغرقت في دقائق. ونجا جدّي لأنّه كان مختبئًا في قارب نجاة. في حين غرق الآخرون.

ابتلع ماكس ريقه.

- هل تقصد أنّ جثثهم ما تزال هناك في الأسفل؟

- لا. - أجاب رولاند - غطّى الضباب الشاطئ عدّة ساعات في فجر اليوم التالي. عثر الصيّادون المحلّيّون على جدّي مغمىً عليه عند هذا الشاطئ. وحينما تبدَّدَ الضباب، تعاون عددٌ من الصيّادين على تمشيط منطقة الحطام بوساطة زوارقهم. لم يعثروا على أيّ جثّة.

- فماذا إذن... - قاطعه ماكس بصوتٍ منخفض.

حرّك رولاند يده ليتركه يتابع.

- نقلوا جدّي إلى مستشفى البلدة، حيث ظلّ يهذي عدّة أيّام. وعندما استفاق، قرّر أن يبني منارةً في قمّة صخور الشاطئ، امتنانًا لإنقاذه، ولاجتناب تكرار مأساة مشابهة. ومع الوقت أصبح هو نفسه حارس المنارة.

التزم الأصدقاء الثلاثة الصمت حوالي الدقيقة بعد أن استمعوا إلى القصّة. ثمّ وجَّهَ رولاند نظرة إلى أليسيا فإلى ماكس.

- رولاند - قال ماكس، باذلًا جهدًا لانتقاء كلماتٍ لا تجرح

صديقه - ثمّة شيءٌ غير متناسب في هذه القصّة. أعتقد أنّ جدّك لم يقصَّها عليك كاملةً.

ظلّ رولاند صامتًا بضع ثوان. ثمّ نظر إلى الشقيقين بابتسامةٍ طفيفةٍ على شفتيه، وهزّ رأسه مرارًا وببطء شديد.

- أعرف. - غمغم - أعرف.

*

شعرت إيرينا أنّ يديها ترتخيان وهي تحاول عبثًا أن تخلع المقبض. انقطعت أنفاسها، التفتت ودفعت باب الغرفة بكلّ ما أوتيت من قوّة. ولم تستطع ألّا تنظر إلى المفتاح وهو يدور في قفل الخزانة.

وفي النهاية، توقّف المفتاح عن الدوران، وسقط على الأرض مدفوعًا من أصابع خفيّة. وبدأ باب الخزانة ينفتح شيئًا فشيئًا. حاولت إيرينا أن تصرخ، لكنّها أحسّت بأنّ أنفاسها المقطوعة لن تساعدها حتّى على إصدار همسة.

برزت عينان لامعتان ومألوفتان من عتمة الخزانة. تنفّست إيرينا الصعداء. إنّه قطُّها. ظنّت لوهلةٍ أنّ قلبها كاد يتوقّف من الفزع. جلست القرفصاء لتحمل الهرّ، فلاحظت حينذاك وجود أحدٍ آخر خلف القطّ، في قلب الخزانة. فتح الهرّ فكّيه وأصدر فحّةً حادّة ومقلقة، كفحيح الأفاعي، ثمّ غطس في الظلام مع صاحبه مجدّدًا. لمعت بسمةٌ مضيئة في العتمة وحطّت عينان برّاقتان كالذهب الملتهب على عينيها، في حين لفظت الأصوات اسمها معًا. صرخت إيرينا بكلّ قوّتها وانقذفت على الباب بقوّة،

فتهاوى من الخبطة ليوقعها أرضًا في الممرّ. ومن دون تردُّدٍ ألقت بنفسها على السلالم، وما زالت تشعر بالأنفاس الجليديّة لتلك الأصوات على رقبتها.

وفي جزءٍ من الثانية، شُدِهَت أندريا كارڤر وهي ترى ابنتها إيرينا تهبط من أعلى السلالم بوجهٍ مشتعلٍ من الفزع. صاحت باسمها، ولكنْ فات الأوان. سقطت الصغيرة وتدحرجت بكلّ ثقلها حتّى الدرجة الأخيرة. هرعت أندريا كارڤر نحو الطفلة واحتضنت رأسها بالذراعين. كانت قطرة من الدم تسيل على جبينها. جسَّت عنقها فاستنتجت أنّ نبضها ضعيف. قاومت نوبة الهستيريا، فرفعت جسد ابنتها وحاولت أن تفكّر بماذا عليها أن تفعل في تلك اللحظة.

وبينما كانت الثواني الخمس الأسوأ في حياتها تمرّ ببطء شديد، رفعت أندريا كارڤر عينيها نحو أعلى السلالم. كان قطّ إيرينا يرمقها من الدرجة العليا. تحدّت نظرةَ الحيوان الشرسة بضع ثوان، ثمّ أحسّت بجسد ابنتها يخفق ما بين ذراعيها، فتفاعلت وهرعت نحو الهاتف.

الفصل السابع



عندما وصل ماكس وأليسيا ورولاند إلى بيت الشاطئ، كانت سيّارة الطبيب ما تزال هناك. وجَّهَ رولاند إلى ماكس نظرةً استفهاميّة. قفزت أليسيا عن الدرّاجة وركضت نحو المستراح، وقد أدركت أنّ شيئًا مّا ليس على ما يرام. استقبلها ماكسيمليان كارڤر عند الباب، بمقلتين ووجهٍ شاحب.

- ما الذي حدث؟ - غمغمت أليسيا.

عانقها أبوها، واستجابت أليسيا لدفء ذراعيه وأحسّت بارتعاش يديه.

- تعرّضت إيرينا لحادث. إنّها في غيبوبة. ننتظر سيّارة الإسعاف لنقلها إلى المستشفى.

- هل أمّي بخير؟ - نحبت أليسيا.

- إنّها في الداخل. مع إيرينا والطبيب. لا يمكننا فعل شيء آخر هنا. - ردَّ الساعاتيُّ بصوتٍ أجوف وبطيء.

ابتلع رولاند ريقه، وكان صامتًا وجامدًا عند أعتاب المستراح.

- هل ستتعافى؟ - سأله ماكس، وهو يفكّر أنّ السؤال يبدو غبيًّا في تلك الظروف.

- لا نعلم. - غمغم ماكسيمليان كارڤر، وحاول أن يبتسم بلا جدوى ودخل إلى البيت من جديد - سأذهب لأرى إن كانت أمّك في حاجة إلى شيء.

ظلّ الأصدقاء الثلاثة واقفين في المستراح، صامتين كالقبور. وبعد ثوانٍ، كسر رولاند الصمت.

- يؤسفني...

أومأت أليسيا. وبعد قليل دلفت سيّارة الإسعاف إلى الدرب واقتربت من البيت. خرج الطبيب لاستقبالها. ودخل الممرّضان إلى البيت خلال دقائق معدودة وحملا إيرينا بالنقّالة، وكانت مغطّاةً بملاءة. وسرعان ما التقط ماكس رؤيةً عن جلد شقيقته الصغرى وقد استحال أبيض كالكلس، وشعر بأنّ معدته تهبط إلى قدميه. ركبت أندريا كارڤر سيّارة الإسعاف، وكان التوتّر باديًا على وجهها وعيناها منتفختان ومحمرّتان، ووجَّهت نظرةً أخيرةً ويائسة إلى أليسيا وماكس. عاد الممرّضان إلى مكانهما. واقترب ماكسيمليان كارڤر إلى الأخوين.

- لا يروقني أن تبقيا وحدكما. في البلدة فندقٌ صغير، لعلّنا...

- لن يحدث شيء يا أبي. لا تقلق لهذا الآن. . . - ردَّت أليسيا.

- سأتّصل بكما من المستشفى، وسأترك لكما الرقم. لا أعرف كم من الوقت سنبقى هناك. لا أعرف إن كان بوسعنا. . .

- اذهب يا أبت. - قاطعته أليسيا وهي تعانقه - ستكون الأمور على ما يرام.

رسم ماكسيمليان كارڤر ابتسامةً أخيرةً بين الدموع وركب السيّارة. شاهد الأصدقاءُ الثلاثة صامتين كيف تتلاشى أضواء المركبة في البعيد بينما كانت أواخر أشعّة الشمس تذبل على عباءة الغروب القرمزيّة.

- ستكون الأمور على ما يرام. - ردّدت أليسيا.

*

وما إن حصلوا على ثيابٍ ناشفة (أعارت أليسيا لرولاند بنطلونًا وقميصًا قديمًا من ملابس أبيها)، صار انتظار الأنباء الأولى لا ينتهي. وكانت الأقمار الباسمة في ساعة ماكس تشير إلى الحادية عشرة إلّا بضع دقائق عندما رنّ الهاتف. انتفضت أليسيا، الجالسة بين الصديقين على أعتاب المستراح، وركضت إلى المنزل. وقبل أن يرنّ الهاتف للمرّة الثانية، رفعت السمّاعةَ ونظرت إلى ماكس ورولاند وهي تهزّ رأسها.

- حسنًا. - قالت بعد ثوانٍ - كيف حال أمّي؟

كان ماكس يسمع غمغمة صوت أبيه على الهاتف.

- كن مطمئنًّا. - قالت أليسيا - لا. لا داعي. أجل، سنكون بخير. اتّصل في الغد.

سكتت أليسيا قليلًا ثمّ أومأت.

- سأفعل. - أكَّدت - ليلة هانئة يا أبي.

أغلقت السمّاعة ونظرت إلى أخيها.

- إيرينا في العناية. - فسَّرت - قال الأطبّاء إنّها تعرّضت لارتجاجٍ دماغيّ، وما تزال في الغيبوبة. يقولون إنّها ستستعيد قواها.

- هل أنتِ متأكّدة من أنّهم قالوا ذلك؟ - ردّ ماكس - وماذا عن أمّي؟

- لك أن تتخيّل. سيمضيان الليلة هناك حتّى هذه اللحظة. ماما لا تريد الذهاب إلى الفندق. سيتّصلان في العاشرة من صباح الغد.

- والآن؟ - سأل رولاند بنبرةٍ خجولة.

هزّت أليسيا كتفيها وحاولت أن ترسم ابتسامة مطمئنة على وجهها.

- هل أحدكما جائع؟ - سألت الفتيين.

تعجَّبَ ماكس إذ اكتشف أنّه يتضوّر جوعًا. تنهّدت أليسيا وافترّت منها بسمة منهكة.

- يبدو لي أنّه من الأفضل لنا نحن الثلاثة أن نأكل شيئًا. - استنتجت - هل من أصوات معارضة؟

وفي خلال دقائق، حضَّرَ ماكس الشطائر، بينما كانت أليسيا تعصر الليمون.

تعشّى الأصدقاء الثلاثة على المقعد في المستراح، تحت ضوء المصباح الأصفر الخافت المتموّج ضمن النسمة الليليّة، وكان المصباح محاطًا بغيمة راقصة من العثّ الصغير. وكان البدر عاليًا فوق البحر قبالتهم، ويعطي سطح المياه شكل بحيرةٍ وسيعة من معدنٍ متّقد.

تعشّوا في صمت، يتأملون البحر ويصغون إلى همهمة الموج. وعندما أنهو الشطائر وعصير الليمون، تبادل الأصدقاء الثلاثة نظرة تواطؤ.

- لا أعتقد أنّني سأغمض عينًا هذه الليلة. - قالت أليسيا وهي تنهض وتطيل النظر في أفق البحر المضيء.

- لا أعتقد أنّ أحدًا منّا ستغمض له عين. - أكَّدَ ماكس.

- لديّ فكرة. - قال رولاند بابتسامةٍ ماكرة على شفتيه - هل جرّبتما السباحة في الليل من قبل؟

- أهذه مزحة؟ - احتدَّ ماكس.

رمت أليسيا الفتيين بنظرةٍ لامعة وملغزة، وسارت بهدوء نحو الشاطئ من دون أن تقول كلمة واحدة. نظر ماكس مذهولًا إلى شقيقته التي كانت تمشي على الرمل، وتنزع ثوبها القطنيّ الأبيض من دون أن تلتفت.

توقّفت أليسيا عند الشاطئ قليلًا، وجلدها ناصعٌ ومتألقٌ تحت

ضياء القمر المتبدّد والأزرق، ثمّ غطّت جسدها شيئًا فشيئًا في ذلك اللوح الضوئيّ الهائل.

- ألن تأتي، يا ماكس؟ - قال رولاند متّبعًا خطى أليسيا على الرمل.

نفى برأسه، وهو ينظر إلى صديقه الذي غطس في الماء، ويسمع ضحكات شقيقته ضمن همسات البحر.

ظلَّ هناك ملتزمًا الصمت، متردّدًا أيحزن أم لا من ذلك التيّار الكهربائيّ الخافق والممتدّ ما بين أخته ورولاند، والذي كان حائرًا بماذا يعرِّفه. وبينما رآهما يلعبان في الماء، أدرك ماكس وربّما قبل أن ينتبه الاثنان إلى الأمر، أنَّ علاقة وثيقة تتشكّل بينهما وقد يتّحدان بها كمصيرٍ محتوم طوال ذلك الصيف.

وتبادرت إلى ذهنه ظلال الحرب الدائرة في مكانٍ قريبٍ بعيدٍ عن ذلك الشاطئ في آنٍ معًا. حربٌ بلا وجه قد تجرُّ إليها صديقه رولاند قريبًا، وربّما تجرّه هو كذلك. وراح يفكّر في كلّ ما وقع خلال ذلك النهار الطويل، من الرؤية الغرائبيّة لسفينة أورفيوس تحت الماء مرورًا بحكاية رولاند في الكوخ وحتّى الحادث الذي تعرّضت له شقيقته. واستولت الكآبة على روحه، بعيدًا عن ضحكات أليسيا ورولاند. كان يشعر، للمرّة الأولى في حياته، أنّ الزمنِ يمضي أسرع ممّا يريد، وأنّه لم يعد بإمكانه اللجوء إلى حلم الأعوام المنقضية. لقد بدأت عجلة الحظّ بالدوران، ولم يكن بيده هو رمي النرد هذه المرّة.

*

وفي وقتٍ متأخّر، اجتمع الثلاثة على ضياء نار موقدةٍ كيفما اتّفق على الشاطئ، وأخذوا يتحدّثون للمرّة الأولى عمّا كان يجول في رأسهم منذ ساعات. كان ضوء النار الذهبيّ ينعكس على الوجه المبلّل والمتلألئ لكلٍّ من أليسيا ورولاند. نظر إليهما ماكس باهتمام وقرّر أن يتحدّث.

- لا أعرف كيف أوضّح، لكني أظّن أنّ شيئًا مّا يحدث. - بادر - لا أعرف ما هو، لكنّ هناك كثيرًا من المصادفات. التماثيل، والشعار، والسفينة...

كان ينتظر أن يعارضه أحد أو يطمئنه بكلماتٍ عقلانيّةٍ لم يستطع إيجادها، أو أن يبيِّن له أنّ مخاوفه ليست سوى نتاج يومٍ طويلٍ أكثر من اللازم، حدثت فيه أشياء أكثر من اللازم، وقد حملها محمل الجدّ أكثر من اللازم. لكنَّ شيئًا من هذا كلّه لم يقع. بل أومأ رولاند وأليسيا بصمت، دون أن يحيدا نظريهما عن النار.

- لقد حلمتِ بذلك المهرّج، صحيح؟ - سأل ماكس.

أكّدت أليسيا بهزّةٍ من رأسها.

- هناك شيء لم أخبركما به. - تابع ماكس - في ليلة البارحة، عندما كان الجميع نيامًا، عدتُ لمشاهدة الفيلم الذي صوَّره جاكوب فليشمان في حديقة التماثيل. لقد ذهبتُ إلى الحديقة قبل يومين. كانت التماثيل في وضعيّةٍ أخرى، لا أدري... كأنّها تحرّكت. ما رأيتُه كان مختلفًا عمّا عرضه الفيلم.

نظرت أليسيا إلى رولاند الذي كان يشاهد رقصة ألسنة اللهب مبهورًا.

- رولاند، ألم يحدِّثك جدّك عن كلّ هذا يومًا؟

بدا أنّه لم يسمع السؤال. حطّت أليسيا يدها على يد الفتى، فرفع عينيه.

- لقد حلمتُ بذلك المهرّج في كلّ فصول الصيف منذ كان عمري خمسة أعوام. - قال بصوتٍ منخفض.

قرأ ماكس الخوفَ في وجه صديقه.

- أعتقد أنّه ينبغي لنا التحدّث مع جدّك يا رولاند. - قال.

أومأ الشابّ ببطء.

- غدًا. - وعدهما بصوته الذي بالكاد يُسمَع - غدًا.

الفصل الثامن



قبل الفجر بقليل، ركب رولاند درّاجته ومضى نحو بيت المنارة. وبينما كان على طريق الشاطئ، كان الضياء الناصع والمذهَّب يصبغ قوسًا من غيومٍ منخفضة. كان ذهنه متأجّجًا بقلقٍ واهتياج. أسرع من وتيرته إلى حدود قواه، يأمل عبثًا أن تمحو جهوده العضليّة تلك التساؤلات العديدة والمخاوف التي تتزاحم في رأسه.

وبعد أن قطع خليج الميناء، وصعد في الطريق التي تفضي إلى المنارة، توقّف رولاند والتقط أنفاسه. كانت حزمة الضوء المنبعثة من المنارة، في ذروة الجرف، تقطّع آخِرَ ظلال الليل كأنّها سكّينٌ من نارٍ في الضباب. وكان يعلم أنّ جدّه ما يزال هناك، صامتًا مترقّبًا، ولم يكن ليترك مكانه إلى أن تتبدّد الظلمة لتفسح المجال لضوء الفجر. كان رولاند منذ أعوامٍ يعايش هوس العجوز الفادح دون أن يتساءل عن سبب سلوكه هذا أو عن

منطقه. كان الأمر برمّته مجرّد شيءٍ استوعبه منذ صغره، وأحد أوجه الحياة اليوميّة التي تعلَّمَ ألّا يلقي لها بالًا.

ورغم هذا، كان رولاند مع مرور الوقت يدرك أنّ حكاية العجوز غير مقنعة. إلّا أنّه وحتّى ذلك اليوم لم يتبيّن على الإطلاق أنّ جدّه قد كذب عليه، أو أنّه لم يروِ له الحقيقة كاملةً على أقلّ تقدير. لم يتملّكه أدنى شكّ بصدق العجوز. ففي واقع الحال كان جدّه مع مرور السنوات يكشف له شيئًا فشيئًا أجزاءَ تلك الأحجية الغريبة التي بات مركزها واضحًا آنذاك: حديقة التماثيل. فأحيانًا عبْر كلماتٍ يلفظها في نومه؛ وأحيانًا أخرى، وهي الأكثر، عبْر إجاباتٍ منقوصة عن الأسئلة التي يطرحها رولاند. كان يدرك بطريقةٍ أو بأخرى أنّ جدّه يريد حمايته بإبقائه على هامش سرّه. غير أنّ حالة الرخاء هذه بدت أنّها تشارف على النهاية، وأنّ ساعة مواجهة الحقيقة غدت أقرب.

استأنف التدرُّج وهو يحاول تجاهل تلك الخواطر حتّى اللحظة. كان مستيقظًا منذ ساعات كثيرة وبدأ جسمه يشعر بالإرهاق. وعندما وصل إلى بيت المنارة، أسند الدرّاجة إلى السياج ودخل دون أن يتعنّى بإشعال الضوء. صعد السلالم حتّى غرفته واستلقى على السرير بكامل ثقله.

من نافذته يرى المنارة، التي تبعد حوالي الثلاثين مترًا عن البيت، وطيف جدّه الثابت مرسومًا على زجاج برج المراقبة. أغمض عينيه وحاول أن يعانق النعاس.

مرّ شريط أحداث النهار في ذهنه، بدءًا بالغوص،

والأورفيوس، وحادث شقيقة أليسيا وماكس. فكّر رولاند أنّه من الغريب والمريح في آنٍ واحد أن تجمعه بهما ساعاتٌ قليلة إلى ذلك الحدّ. وإذ خطر الشقيقان على باله حينذاك، في عزلة غرفته، شعر أنّهما أصبحا منذ ذلك اليوم صديقيه الحميمين، ورفيقيه اللذين سيطلعهما على أسراره وبواعث قلقه.

انتبه أنّ مجرّد التفكير فيهما يمدّه بشعورٍ بالأمان والرفقة، وبالمقابل يراوده إحساسٌ بالولاء والعرفان لذلك العقد الخفيّ الذي بدا أنّه قد وحَّدهم في تلك الليلة على الشاطئ.

وفي النهاية، عندما تغلّب الإرهاق على الإثارة المتراكمة خلال النهار، لم تكن أفكار رولاند الأخيرة - وهو يغطّ في نومٍ عميقٍ ومرمِّم - تسرح في الريبة الغامضة التي تهيمن عليها، ولا في الكآبة من إمكانيّة استدعائه للتجنيد في الخريف. غفا رولاند في تلك الليلة بسلامٍ في أحضان رؤيةٍ كانت سترافقه بقيّة عمره: أليسيا، بالكاد يدثِّرها ضياء القمر، وهي تغطِّس جلدها الأبيض في بحرٍ من نورٍ فضّيّ.

*

استيقظ الصبح تحت عباءةٍ من غيوم داكنة ومتوعّدة تخيّم ما بعد المدى ويتغلغل فيها ضوءٌ واهنٌ وضبابيّ يذكِّر بنهارٍ شتويٍّ بارد. تمعَّنَ فيكتور كراي بالخليج الذي تحت قدميه، مستندًا إلى سياج المنارة المعدنيّ، وفكَّرَ أنّ الأعوام هناك في الأعلى علَّمته التعرّف على الجمال الغامض والغريب والذابل لتلك الأيّام

الرصاصيّة التي ترتدي ثوب العاصفة وتنذر ببداية الصيف على الساحل.

وكانت البلدة، من نقطة المراقبة في المنارة، تتّسم بجانبٍ فريدٍ لمجسّمٍ عمرانيٍّ مبنيٍّ بعناية من قِبَلِ مولع بجمع التحف. وفي الأفق، نحو الشمال، ينبسط الشاطئ مثل خطٍّ أبيض لا ينتهي. كانت الأيام المشمسة والصافية تسمح لفيكتور كراي، من مكانه هذا، برؤيةٍ شديدة الوضوح لهيكل الأورفيوس الغارق، كما لو أنّها مستحاثّة ميكانيكيّة عملاقة غائصة في الرمل.

غير أنّ البحر في ذلك الصباح كان يموج مثل بحيرةٍ قاتمة اللون ولا قاع لها. وبينما كان يتفرّس في سطح المحيط الحصين، فكّر فيكتور كراي في الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة التي أمضاها في تلك المنارة التي شيَّدَها بنفسه. وكلّما توجَّهَ بنظره إلى الوراء، شعر أنّ كلًّا من تلك السنوات على حدة بمثابة صخرة ثقيلة على كتفيه.

ومع مرور الوقت، صار يظنّ أنّ القلق السرّيّ من ذلك الترقُّب الذي لا ينتهي ربّما كان مجرّد وهم، وأنّ هوسه العنيد حوَّلَه إلى مراقبٍ لتهديدٍ لا وجود له إلّا في مخيّلته. إلّا أنّ تلك الأحلام قد عادت مرّةً أخرى. وفي النهاية استيقظت أشباح الماضي من سبات أعوامٍ طويلة، وها هي تطوف من جديد في أروقة ذهنه. وعادت معها الخشية من كونه بات عجوزًا وضعيفًا على مواجهة عدوّه القديم.

كان منذ سنوات لا ينام إلّا ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم

بمشقّة؛ فيقضي بقيّة وقته في المنارة بمفرده عمليًّا. وقد اعتاد حفيده رولاند أن ينام عدّة ليالٍ في الأسبوع بكوخ الشاطئ، ومن المألوف أن لا يقضيا معًا أكثر من دقيقتين أحيانًا، وفي أيّامٍ متقطّعة. وقد ابتعد بنفسه طوعًا عن حفيده لأنّ ذلك يمدّه بطمأنينةٍ في روحه على الأقلّ، ولأنّه كان واثقًا أنّ الألم الذي يعايشه بكونه لا يتشارك تلك السنوات من عمر الفتى هو الثمن الواجب دفعه لضمان حماية رولاند وسعادته.

وعلى الرغم من كلّ هذا، كلّما رأى من برج المنارة الفتى يغوص في مياه الخليج بجوار هيكل الأورفيوس، أحسَّ بدمائه تتجمّد. لم يشأ أن يعلم رولاند ذلك، وقد عزم الجدّ أن يجيب عن أسئلة حفيده في طفولته، عن السفينة وعن الماضي محاولًا ألّا يكذب، وفي الوقت نفسه ألّا يروي له طبيعة الأحداث على حقيقتها. وفي اليوم السابق، حين أطال النظر في رولاند وصديقيه الجديدين على الشاطئ، تساءل إن لم يكن ذلك خطأً فادحًا.

أبقته تلك الهواجس في المنارة وقتًا أطول ممّا اعتاد أن يقضيه فيها صباحًا. كان في العادة يرجع إلى البيت قبل الثامنة. نظر فيكتور كراي إلى الساعة ورأى أنّها العاشرة والنصف. هبط السلَّمَ الحلزونيّ المعدنيّ للبرج ليمشي نحو البيت ويغتنم ساعات النوم القليلة التي يسمح بها جسده. وفي الأثناء رأى درّاجة رولاند واستنتج أنّ الفتى قد نام هناك.

عندما دخل البيتَ، محاولًا عدم إثارة الضجّة كي لا يزعج

نوم حفيده، اكتشف أنّ رولاند ينتظر جالسًا على إحدى أرائك صالة الطعام.

- لم أتمكّن من النوم. - قال رولاند باسمًا - نمتُ ساعتين بعمق ثمّ استيقظتُ فجأةً وعجزتُ عن الغفو ثانيةً.

- أعرف شيئًا عن هذا. - أجاب فيكتور كراي - لكنّي أعرف حيلةً لا تفشل.

- وما هي؟ - تحرَّى رولاند.

رسم العجوز ابتسامته الماكرة، القادرة على انتزاع ستّين عامًا عن كاهله.

- الذهاب إلى المطبخ. هل أنت جائع؟

قيَّمَ رولاند السؤال. والحقيقة أنّ صورة الخبز المحمّص بالزبدة، والمربَّى والبيض المسلوق بلا قشر، كانت تدغدغ شهيّته. فأومأ من دون تردُّد.

- جيّد. - قال فيكتور كراي - ستتولّى مهام مساعد الطبّاخ. هيّا.

لحق رولاند بجدّه إلى المطبخ، مستعدًّا لتنفيذ توجيهاته.

- بما أنّني أنا المهندس - فسَّرَ فيكتور كراي - سأقلي البيض، وأنت ستحمِّص الخبز.

وفي غضون دقائق تمكّن الجدّ وحفيده من ملء المطبخ بالدخان، واكتساح البيت بذلك العبق الذي لا يقاوَم لفطورٍ حُضِّرَ توًّا. ثمّ جلسا واحدًا قبالة الآخر إلى طاولة المطبخ وشربا نخب الكأس الطافحة بالحليب الطازج.

- هذا فطور مَن يجب عليه أن ينمو. - مزح فيكتور كراي، ملتهمًا أوّلَ قطعة خبز بشراهة مفتعلة.

- البارحة كنتُ في السفينة. - قال رولاند بصوتٍ أقرب إلى الهمس، مخفضًا عينيه.

- أعرف. - قال العجوز، وما انفكّ يبتسم ويمضغ - هل من جديد؟

تردَّدَ رولاند قليلًا، وضع كأس الحليب ونظر إلى العجوز، الذي حاول المحافظة على تعابيره الباسمة والمطمئنّة.

- أظنّ أنّ شيئًا سيّئًا قد وقع يا جدّي. - قال أخيرًا - شيءٌ مّا له صلةٌ ببعض التماثيل.

أحسَّ فيكتور كراي بعقدةٍ فولاذيّة تتشكّل في معدته. كفَّ عن المضغ وترك قطعة الخبز بمنتصفها.

- صديقي، ماكس، رأى أشياء غريبة. - تابع رولاند.

- وأين يسكن، صديقك هذا؟ - سأله العجوز، بصوتٍ صافٍ.

- في بيت آل فليشمان القديم، عند الشاطئ.

أومأ فيكتور كراي ببطء.

- رولاند، اروِ لي كلَّ ما رأيتموه، أنت وأصدقاؤك. أرجوك.

رفع رولاند كتفيه وقصَّ أحداث الأيّام الأخيرة، منذ تعرَّفَ على ماكس وحتّى الليلة الماضية. وعندما أنهى قصّته، نظر إلى جدّه، محاولًا أن يقرأ أفكاره. عزم العجوز على عدم إبداء قلقه، فوجَّهَ لرولاند ابتسامة اطمئنان.

- انهِ فطورك يا رولاند!

- ولكن. . . - اعترض الفتى.

- فيما بعد، عندما تنتهي من فطورك، اذهب إلى صديقيك وأْتِ بهما إلى هنا. - شرح العجوز - علينا أن نتحدّث مطوّلًا.

*

عند الساعة ١١:٣٤ من ذلك الصباح، اتّصل ماكسيمليان كارڤر من المستشفى ليبلغ ابنيه آخِرَ الأنباء. ما زالت إيرينا الصغيرة تتحسّن ببطء، لكنّ الأطبّاء لم يتجرّؤوا بعد على التأكيد أنّها تجاوزت مرحلة الخطر. لاحظت أليسيا أنّ صوت والدها يعكس طمأنينةً معيّنة وفكّرت أنّ الأسوأ صار وراءهم.

وبعد خمس دقائق، رنّ الهاتف مجدّدًا. هذه المرّة كان رولاند، يتّصل من مقهى البلدة. كانوا سيتلاقون في المنارة عند منتصف النهار. حين أغلقت أليسيا السمّاعة، عاد بها ذهنها إلى النظرة المسحورة التي وجَّهها إليها رولاند في الليلة الماضية على الشاطئ. ابتسمت في سرّها وخرجت إلى المستراح لتبلغ ماكس آخِرَ الأنباء. لمحت خيال أخيها جالسًا على الرمل يرنو إلى البحر. وفي الأفق أشعلت أولى ومضات العاصفة الإلكترونيّة سلسلةً من المفرقعات في قبّة السماء. سارت أليسيا إلى الشاطئ وجلست بجانب ماكس. كان برد ذلك الصباح ينهش جلدها فندمت لأنّها لم ترتدِ كنزة ثقيلة.

- اتّصل رولاند. - قالت - جدّه يودّ رؤيتنا.

أومأ ماكس صامتًا، دون أن يحيد بصره عن البحر. شرخت الصاعقة الهابطة على المحيط خطَّ السماء.

- يعجبكِ رولاند، صحيح؟ - سألها وهو يلاعب حفنة من الرمل بين أصابعه.

قيَّمَت أليسيا سؤال شقيقها بضع لحظات.

- أجل. - أجابت - وأظنّ أنّني أعجبه أيضًا. لماذا، يا ماكس؟

رفع ماكس كتفيه وألقى حفنة الرمل إلى حيث تتكسّر أمواج المدّ.

- لا أدري. - قال - كنت أفكّر في ما قاله رولاند عن الحرب وما تبقّى. وأنّهم قد يستدعونه بعد الصيف... لا بأس. أتصوّر أنّ هذا ليس من شأني.

التفتت أليسيا نحو أخيها الصغير وبحثت عن نظرته الهائمة. كان يقوّس حاجبيه على طريقة ماكسيمليان كارفر نفسها، وعيناه الرماديّتان تعكسان كالعادة بحرًا من الأعصاب المدفونة تحت الجلد.

أحاطت أليسيا كتفي ماكس بذراعها وقبّلت خدَّه.

- فلنذهب إلى الداخل. - قالت وهي تنفض الرمل الذي علق بلباسها - الطقس باردٌ هنا.

الفصل التاسع



عندما وصلا إلى أسفل الدرب الصاعد إلى المنارة، شعر ماكس أنّ عضلات ساقيه ستصبح كالزبدة في غضون ثوانٍ. كانت أليسيا قبل أن يغادرا قد تطوّعت لأخذ الدرّاجة الأخرى التي ما زالت نائمة في أفياء المرأب، لكنّ ماكس أبى وازدرى الفكرة، وتطوَّعَ أن يوصلها معه على حديدة درّاجته مثلما فعل رولاند في اليوم السابق. وبعد كيلومتر واحد، بدأ يندم على بطولته.

وكأنّ رولاند قد حدس بمعاناة ماكس خلال التدريجة الطويلة، فكان ينتظرهما بدرّاجته عند بداية الدرب. وحين رآه ماكس، توقَّفَ وأنزَلَ شقيقته. تنفّسَ بعمقٍ ودلَّكَ فخذيه المتشنِّجين من الإرهاق.

- لا بدّ أنّ قامتك قد قصرت أربعة سنتمترات أو خمسة. - قال رولاند.

قرّرَ ماكس ألّا يهدر أنفاسه للردّ على تلك الدعابة. وصعدت أليسيا، من دون إبداء أيّ كلمة، على درّاجة رولاند وسارت بهما

الدرّاجة. انتظر ماكس بضع ثوانٍ قبل أن يستأنف الدوس على الدرب الصاعد. وعلم حينذاك كيف سينفق راتبه الأوّل: كان سيشتري درّاجة ناريّة.

*

كانت صالة الطعام في بيت المنارة تعبق بروائح القهوة المصنوعة توًّا وتبغ الغليون. أرضيّة الصالة وجدرانها من خشبٍ داكن، وليس فيها أثاثٌ أو تكاد، باستثناء مكتبة ضخمة وبعض الأغراض البحريّة التي عجز ماكس عن تعريفها. ثمّة موقدةٌ لإحراق الحطب، وطاولةٌ مغطّاة بملاءة من جلدٍ غامق، ومحاطة بأرائك جلديّة قديمة بهتت ألوانها: هذه كلُّ معالم الأبّهة لدى فيكتور كراي.

أشار رولاند لصديقيه بالجلوس على الأرائك واسترخى على كرسيّ خشبيّ وسطهما. انتظروا خمس دقائق، من دون تبادل أيّ كلمة تقريبًا، وهم يسمعون خطوات العجوز في الطابق الأعلى.

وفي النهاية، ظهر حارس المنارة. لم يكن كما تخيّله ماكس. كان فيكتور كراي رجلًا متوسّط القامة، ذا بشرة شاحبة وكتلة شعر وافرة تتوّج وجهًا لا يعكس عمره الحقيقيّ.

جالت عيناه الخضراوان والثاقبتان ببطءٍ على تقاسيم الشقيقين، كما لو أنّه يحاول قراءة أفكارهما. افترّت ابتسامةٌ عصبيّة من ماكس على تلك النظرة المتحرّية. فردَّ عليها فيكتور كراي بابتسامة ودودة أضاءت وجهه.

- أنتما أوّل شخصين يأتيان لزيارتي في هذا المكان منذ أمدٍ

بعيد. - قال حارس المنارة، وهو يجلس على إحدى الأرائك - اعذراني على تصّرفاتي. بكلّ الأحوال، عندما كنت طفلًا كنت أظنّ أنّ كلّ القصص عن اللباقة والرسميّات هي ترّهاتٌ عظيمة. وما زلت أراها كذلك.

- نحن لسنا أطفالًا يا جدّي. - قال رولاند.

- أيًّا كان أصغر منّي فهو صغير. - ردّ فيكتور كراي - لا بدّ أنّكِ أليسيا. وأنت ماكس. لا داعي ليكون المرء داهية ليدرك الأمر، ها؟

ابتسمت أليسيا بمودّة. وعلى الرغم من أنّها عرفته منذ دقيقتين، كان سلوك الجدّ الماكر يسحرها. وكان ماكس، من جهته، يتمعّن في وجه الرجل، محاولًا أن يتخيّله منغلقًا في تلك المنارة أعوامًا وأعوامًا، يحرس سرّ الأورفيوس.

- أعرف ما الذي تفكّران فيه. - صرَّحَ فيكتور كراي - هل كلّ ما رأيناه أو ما ظنّنا أنّنا رأيناه في هذه الأيّام الأخير حقيقيّ؟ في الواقع لم أحسَب يومًا قدوم اللحظة التي سأضطرّ فيها إلى الحديث عن الموضوع مع أحد، ولا حتّى مع رولاند. إلّا أنّه يحدث دومًا عكس ما نتوقّعه، أليس كذلك؟

لم يردّ أحد.

- جيّد. فلندخل في الموضوع. عليكم أوّلًا أن تخبروني بكلّ شيء تعرفونه. وحين أقول كلّ شيء، فأنا أقصد *كلَّ* شيء. بما فيها التفاصيل التي قد تبدو لكم تافهة. كلّ شيء. مفهوم؟

نظر ماكس إلى رفيقيه.

- هل أبدأ؟ - اقترح.

أومأ رولاند وأليسيا. فأشار إليه فيكتور كراي بأن يبدأ حكايته.

*

تحدَّثَ ماكس خلال نصف الساعة اللاحقة عن كلّ شيء كان يذكره، بلا توقُّف، تحت النظرات المهتمّة للعجوز الذي أصغى إلى كلماته من دون إبداء أيّ شكٍّ أو ريبة - مثلما توقَّعَ ماكس - أو عجب.

وعندما أنهى حكايته، أمسك فيكتور كراي الغليون وأعدَّهُ بطريقةٍ منهجيّة.

- لا بأس. - غمغم - لا بأس.

أشعل حارس المنارة غليونه فتموَّجت غيمةٌ من دخانٍ ذي نكهةٍ حلوةٍ في أنحاء الصالة. تذوَّقَ فيكتور كراي ببطءٍ سحبةً لاذعةً وفريدة الطعم، واسترخى على الأريكة. ثمّ نظر إلى عينَي كلٍّ من الفتية الثلاثة، وبدأ يتحدّث...

*

- في هذا الخريف سأتمّ عامي الثاني والسبعين، وعلى الرغم من ارتياحي بأنّي لا أبدو هَرِمًا، فإنّ كلًّا من تلك السنوات تثقل على كاهلي كما لو أنّها بلاطة. التقدُّم في السنّ يريك أشياء غريبة. خذ مثلًا أنّي بتُّ أعرف الآن أنّ الحياة تتقسّم جوهريًّا إلى

ثلاث مراحل. ففي المرحلة الأولى لا يتبادر إلى ذهن المرء أنّه سيشيخ، ولا أنّ الوقت يمضي، ولا أنّنا منذ اليوم الذي نولد فيه نسير نحو غايةٍ وحيدة. وما إن ينقضي الشباب الباكر، تبدأ المرحلة الثانية، والتي يدرك المرء فيها هشاشة وجوده، وما يظهر في البداية أنّه قلقٌ بسيط يأخذ بالاتّساع في الوجدان مثل بحرٍ من الشكوك والهواجس التي ترافقك حتّى آخر يومٍ من عمرك. وفي الأخير، في نهاية الحياة، تُفتَتح المرحلة الثالثة، وهي مرحلة قبول الواقع، وبالتالي، التسليم والانتظار. في خلال حياتي، عرفتُ كثيرًا من الأشخاص الذين ظلّوا عالقين في أحد تلك الأشواط ولم يتمكّنوا من تجاوزها أبدًا. إنّه أمرٌ مريع.

لاحظ فيكتور كراي أنّ الفتية الثلاثة يصغون إليه باهتمامٍ وصمت، لكنّ نظراتهم تبدو أنّها تتساءل عمّا يتفوّه به. توقَّفَ لتذوّق سحبة من الغليون، وابتسم لجمهوره الضيّق.

- هذا مشوارٌ ينبغي لكلّ واحدٍ منّا أن يتعلّم السير فيه بمفرده، وأن يرجو اللّه أن يعينه كي لا يتوه قبل الوصول إلى نقطة النهاية. لو كان لجميعنا، في مستهلّ حياتنا، القدرة على إدراك هذا الأمر الذي يبدو بسيطًا، لما وُجِدَ جزءٌ كبيرٌ من مآسي الدنيا وعذاباتها. ولكنّ هذه من إحدى مفارقات الكون العظيمة: لا تُمنَح لنا هذه النعمة إلّا بعد فوات الأوان. نهاية الدرس.

تتساءلون لماذا أحدّثكم بكلّ هذا. سأخبركم. أحيانًا، مرّةً من أصل مليون، يحدث أنّ أحدهم، في زهرة شبابه، يفهم أنّ الحياة هي طريقٌ بلا عودة فيقرّر أنّ هذه اللعبة لا تصلح له. كما

لو أنّك قرّرت أن تغشّ في لعبةٍ لا تعجبك. وفي معظم الأحيان سيكتشفون أمرك فتفشل الخدعة. لكنّ المحتال ينجو بفعلته في أحيانٍ أخرى. وعندما تكون اللعبة بالمراهنة على الحياة أو الموت، عوضًا عن النرد أو الورق، فإنّ ذلك المحتال يتحوّل إلى شخصٍ في منتهى الخطورة.

قبل زمنٍ بعيد، حين كنت في سنّكم، قاطعت الحياةُ مصيري بمصير أحد أكبر المحتالين الذين جاؤوا إلى الدنيا. لم أتمكّن يومًا من معرفة اسمه الحقيقيّ. ففي الحيّ الفقير الذي كنت أسكن فيه، كان جميع أولاد الشارع يعرفونه على أنّه قابيل. في حين يسمّيه آخرون أمير الضباب، لأنّه بحسب الأقاويل كان يظهر دومًا من ضبابٍ كثيفٍ يجتاح الأزقّة الليليّة، ويختفي مجدّدًا في الظلمات قبل الفجر.

كان قابيل رجلًا وسيمًا بهيَّ الطلعة، لم يستطع أحد أن يفهم أصوله. كان في كلّ ليلة، في أحد أزقّة الحيّ، يجمع الفتية ذوي الأسمال البالية، المتّسخين كلّيًّا بالقذارة وأدخنة المصانع، ويعرض عليهم اتّفاقًا محدّدًا. بإمكان كلّ واحدٍ منهم أن يعبّر عن أمنية، وسيحوِّلها قابيل إلى حقيقة. وبالمقابل لم يكن يطلب إلّا شيئًا وحيدًا: ولاءٌ مطلق. وذات ليلة صحبني صديقي المفضّل أنغوس إلى أحد اجتماعات قابيل مع فتية الحيّ. وكان هذا يرتدي ثياب رجلٍ محترم خارجٍ من الأوبرا توًّا، ويبتسم على الدوام. لون عينيه يتغيّر في الظلام، وصوته أجشّ وبطيء. كان يعمل ساحرًا بالنسبة إلى الأولاد. وأنا الذي لم أصدِّق أيًّا من تلك الخرافات

التي تحاك عنه في الحيّ، ذهبتُ إلى اللقاء في تلك الليلة عازمًا على السخرية من الساحر المزعوم. لكنّي أذكر أنّني في حضوره، استحالت أدنى رغبة لديَّ في السخرية إلى هباءٍ منثور. فحالما رأيته لم أشعر بشيء سوى الخوف، وتحفّظتُ بالطبع عن التلفُّظ بأيّ كلمة. في تلك الليلة، عبَّرَ كثيرٌ من أولاد الشارع عن أمانيهم لقابيل. وعندما أنهوا ما عندهم، وجَّهَ قابيل نظرته الباترة نحو الزاوية التي وقفنا فيها أنا وصديقي أنغوس. سألنا إن كان لدينا ما نطلبه. بقيتُ ساكتًا، لكنّ أنغوس فاجأني بأنّه تكلَّم. كان والده قد خسر عمله في ذلك اليوم تحديدًا. فالمصهر الذي توظَّفَ فيه معظم الكبار في الحيّ كان يسرِّح عمّاله لاستبدالهم بآلاتٍ تشتغل ساعاتٍ أطول ولا تفتح فمها. وأوّل المهدّدين بالطرد إلى الشارع هم زعماء المعارضة المتشدّدة بين العمّال. وكان لوالد أنغوس كلُّ الأرقام تقريبًا في دولاب الحظّ ذاك.

ومنذ ذلك المساء، بات من المستحيل أن يعيل أنغوس وإخوته الخمسة، المتكدّسين في منزلٍ بائسٍ من الآجر الذي نهشته الرطوبة. فعبَّرَ الولد عن مطلبه بصوتٍ خفيض لقابيل: أن يعيدوا أباه إلى العمل في المصهر. هزّ قابيل رأسه، وتمامًا مثلما أنبأوني، ابتعد مجدّدًا نحو الضباب واختفى. وفي اليوم التالي استُدعِيَ والد أنغوس إلى العمل من جديد لسببٍ غير معلوم. لقد صان قابيل كلمته.

بعد أسبوعين، كنت عائدًا مع أنغوس إلى البيت ليلًا بعد أن كنّا في مدينة ملاهٍ متنقّلة نُصِبَت في ضاحية المدينة. قرّرنا أن نقصّر

الطريق كي لا نتأخّر أكثر من المسموح، فاتّبعنا أثر السكّة الحديد المهجورة. كنّا نمشي في تلك الأماكن المشؤومة تحت ضوء القمر عندما انتبهنا أنّ أمامنا مباشرةً، في منتصف المسار المسدود، يبرز من بين الضباب شخصٌ ملتحفٌ بدثارٍ عليه نجمةٌ سداسيّة ومحاطة بدائرة ومحفورةٌ بالذهب: أمير الضباب. تحجَّرنا قبالته. اقترب قابيل، وتوجَّهَ إلى أنغوس بابتسامته المعتادة. شرح له أنّ لحظة ردِّ المعروف قد حانت. أومأ أنغوس، وكان من الواضح أنّه مذعور. قال قابيل إنّ الطلب بسيط: تصفية حسابات صغيرة. في تلك الفترة، كان الرجل الأغنى في الحيّ، أو الغنيّ الوحيد في الواقع، يدعى سكوليموسكي، وهو تاجرٌ بولنديّ يمتلك متجر الغذائيّات والألبسة الذي يتبضَّع منه سكّان المنطقة قاطبةً. تكمن المهمّة التي ألقيت على أنغوس بإحراق متجر سكوليموسكي. ولا بدّ أن تُنجَزَ العمليّة خلال الليلة القادمة. حاول أنغوس أن يعترض، لكنّ كلماته اختنقت في حنجرته. ثمّة شيءٌ في عيني قابيل يبيِّن بجلاء أنّه غير مستعدّ لقبول إلّا الانصياع المطلق. ثمّ انصرف الساحر مثلما جاء.

ركضنا على درب العودة، وعندما تركتُ أنغوس عند باب بيته، كانت نظرة الرعب التي ملأت عينيه تعتصر قلبي. وفي اليوم التالي بحثتُ عنه في الأرجاء، فلم أعثر له على أثر. بدأتُ أخشى أن يكون صديقي قد نوى تنفيذ المهمّة الإجراميّة التي كلَّفه بها قابيل، فقرّرتُ عند هبوط الليل أن أقف قبالة متجر سكوليموسكي وأراقب. لم يأت أنغوس، ولم يحترق محلّ البولنديّ في تلك

الليلة. شعرتُ بالندم لأنّي شككتُ في صديقي وتصوّرتُ أنّ أفضل ما بوسعي فعله هو طمأنته، لأنّني إذ أعرفه جيّدًا رجَّحتُ أن يكون في البيت مختبئًا، يرتجف مخافةً من انتقامٍ محتملٍ يقوم به الساحر الشبح. وفي الصباح التالي ذهبتُ إلى بيته. لم يكن أنغوس هناك. قالت لي أمّه، والدموع في عينيها، إنّهم لم يروه طوال الليل وتوسّلت إليّ أن أبحث عنه وأعيده إلى البيت.

انقبضت معدتي وأنا أجوب الحيّ وأمشّطه من أوّله إلى آخِره دون أن أتجاهل أزقّته القذرة. لم يره أحد. وحين الغروب، بتّ منهكًا واحترتُ أين أبحث عنه، فاجتاحني حدسٌ قاتم. عدتُ إلى درب السكّة القديمة واتّبعتُ المسارات الحديديّة التي تتلألأ بالكاد تحت الضوء في ظلمة الليل. لم أضطرّ إلى المشي كثيرًا. وجدتُ صديقي ممدّدًا على القضبان، في المكان نفسه الذي ظهر فيه قابيل من الضباب قبل ليلتين. أقدمتُ على جسّ نبضه، لكنّ يديَّ لم تتلمّسا جلدًا على ذلك الجسد. إنّما جليدٌ لا غير. تحوَّل جسد صديقي إلى شكلٍ ثلجيٍّ مريع أزرق ومغشّىً يذوب ببطء على السكّة المهجورة. وحول عنقه قلادةٌ تُبرِز الشعار نفسه الذي أذكر أنّي رأيته محفورًا على دثار قابيل: النجمة السداسيّة المحاطة بدائرة. بقيتُ بجانبه حتّى تبدّدت ملامح وجهه إلى الأبد ببِركة دموع صقيعيّة في الظلام.

وفي الليلة نفسها، وبينما كنت مذعورًا أكتشف مصير صديقي، دُمِّرَ متجر سكوليموسكي بحريقٍ هائل. لم أخبر أحدًا بما شاهدته عيناي في ذلك اليوم. بعد شهرين، انتقلت عائلتي إلى

الجنوب، بعيدًا عن هناك، وسرعان ما أخذتُ أوقن، مع مرور الأشهر، أنّ أمير الضباب كان مجرّد ذكرى مريرة عن الأعوام القاتمة لطفولتي التي عشتها في ظلّ تلك المدينة الفقيرة، والقذرة والعنيفة. . . إلى أن رأيتُه ثانيةً ذات يوم، وأدركتُ أنّ تلك لم تكن سوى البداية.

الفصل العاشر



- وقع لقائي التالي مع أمير الضباب ذات مساء كان فيه والدي - الذي ترقَّى إلى منصب المسؤول التقنيّ في مصنع أنسجة - قد صحبنا جميعًا إلى مدينة ترفيهيّة كبيرة شُيِّدَت على رصيفٍ خشبيّ يمتدّ في البحر مثل قصرٍ زجاجيٍّ معلَّقٍ في السماء. وعندما هبط الظلام، كان استعراض الأضواء الجذّابة متعدّدة الألوان مدهشًا. لم أر شيئًا بذلك الجمال من قبل. كان والدي مبتهجًا: انتشل عائلته ممّا بدا أنّه مستقبلٌ بائسٌ في الشمال وبات آنذاك رجلًا ذا مكانة، يحظى بالتقدير وفي جعبته ما يكفي من المال بحيث يتمكّن أبناؤه من التمتُّع بأماكن اللهو التي يرتادها أيُّ فتىً في العاصمة. تعشّينا باكرًا ثمّ أعطى أبي لكلٍّ منّا قروشًا لكي ننفقها كيفما شئنا، بينما تنزَّهَ مع والدتي متشابكين، جنبًا إلى جنب أهل المكان المتأنّقين والسيّاح المختالين.

كنتُ مفتونًا بالدولاب الهوائيّ العملاق الذي يدور بلا هوادة في أحد أطراف الرصيف، والذي كانت أضواؤه تُلمَحُ من عدّة

أميال على الساحل بأكمله. ركضتُ لأقف في الطابور، ووقعت عيناي أثناء الانتظار على أحد الأكشاك المجاورة. فما بين ألعاب اليانصيب ومنصّات الرمي، هناك ضوءٌ أرجوانيٌّ مكثّفٌ ينير الكشك الغامض لفلانٍ يدعى الدكتور قابيل، العرّاف والساحر والمنجِّم، بحسب ما تذكره اللافتة التي صوَّرَ فيها مصمِّمٌ من الدرجة الثالثة وجهَ قابيل وهو ينظر متوعِّدًا إلى الفضوليّين الذين يقتربون من الوكر الجديد لأمير الضباب. وكانت اللافتة والظلال التي يعرضها الفانوس الأرجوانيّ تسبغ الكشك بمظهرٍ مأتميّ وكئيب. وثمّة ستارةٌ بالنجمة السداسيّة المخيَّطة بالأسود تخيِّم على المدخل.

سُحِرتُ بتلك الرؤية، فانسحبتُ من طابور الدولاب الهوائيّ واقتربتُ من الكشك. وكنت أحاول أن أتبصَّرَ إلى الداخل من خلال الكوّة الضيّقة عندما انفتحت الستارة فجأةً لتظهر امرأةٌ ترتدي ثيابًا سوداء، وجلدها ناصع البياض كالحليب وعيناها داكنتان وثاقبتان، أومأت لتدعوني للدخول. وفي الداخل، لمحتُ الرجل الذي عرفتُه في مكانٍ بعيدٍ جدًّا عن هناك باسم قابيل، جالسًا إلى مكتبٍ يضيئه مصباح زيت. وثمّة قطٌّ كبير وداكن اللون، ذهبيُّ العينين، يلعق نفسه عند قدميه.

ومن دون تردُّدٍ دخلتُ واتّجهتُ نحو الطاولة حيث كان أمير الضباب ينتظرني مبتسمًا. ما زلتُ أذكر صوته، الأجشّ والبطيء، يلفظ اسمي على أصداءٍ في الخلفيّة لأنغامٍ مخدِّرةٍ تصدح من أرغن الخيول الدوّارة الذي بدا أنّه موجود في البعيد، في غاية البعد عن هناك. . .

*

- فيكتور، صديقي العزيز. - همس قابيل - لو لم أكن منجِّمًا، لقلتُ إنّ القدر يشاء أن تتقاطع طرقاتنا مجدّدًا.

- مَن تكون حضرتك؟ - تمكَّنَ فيكتور الفتى من النطق، بينما كان يرقب بطرف عينه المرأة الشبحيّة التي انسحبت إلى ظلمات الغرفة.

- الدكتور قابيل. كما تقول اللافتة. - أجاب - هل أنت تتسلّى مع العائلة بعض الوقت؟

ابتلع فيكتور ريقه وأومأ.

- هذا جيّد. - تابع الساحر - التسلية مثل اللودانيوم: ينتشلنا من البؤس والألم، وإن لفترةٍ وجيزة.

- لا أعرف ما اللودانيوم. - ردَّ فيكتور.

- عصارة الخشخاش، مخدِّرٌ يا ولدي. - أجاب قابيل ببطء وهو يحيد بصره نحو ساعةٍ على أحد الأرفف في الجهة اليمنى.

بدا لفيكتور أنّ عقاربها تدور بالمقلوب.

- ليس للزمن وجود، لذا لا ينبغي إهداره. هل فكّرتَ في أمنيتك مسبقًا؟

- ليس لديّ أيّ أمنية. - أجاب فيكتور.

انفجر قابيل ضاحكًا.

- هيّا، هيّا. لدينا جميعًا لا أمنية واحدة، إنّما مئات. وكم تبخل علينا الحياة بالفرص لتحويل أمانينا إلى واقع. - نظر قابيل إلى المرأة اللغز بتكشيرة تعاطف - أليس صحيحًا يا عزيزتي؟

لم تجب المرأة، كما لو أنّها مجرّد غرضٍ جامد.

- ولكن هنالك مَن يحالفهم الحظّ، يا فيكتور. - قال قابيل وهو ينحني إلى الطاولة - مثلك أنت. لأنّك تستطيع أن تحوِّل أحلامك إلى وقائع. وأنت تعرف الطريقة مسبقًا.

- مثلما فعل أنغوس؟ - احتدَّ فيكتور الذي انتبه في تلك اللحظة إلى أمرٍ غريب لم يتمكّن من محوه من ذهنه. قابيل لا يرفّ له جفن، أبدًا، ولا لمرّة واحدة.

- حادثٌ يا صديقي. حادثٌ تعيس. - قال قابيل متّخذًا نبرةً متألّمة ومنكسرة - يخطئ مَن يصدِّق أنّ الأحلام تتحقّق من دون منح أيّ شيء بالمقابل. ألا يبدو لك يا فيكتور؟ فلنقل إنّ ذلك من الإجحاف. أراد أنغوس تناسي بعض واجباته وهذا ما لا يمكن مغفرته. لكنّ الماضي مضى. فلنتحدّث عن المستقبل، عن مستقبلك.

- أهذا ما فعلتَ حضرتك؟ - سأله فيكتور - حقَّقتَ أمنية؟ حوَّلته إلى ما هو عليه الآن؟ ما الذي كان يجب عليه أن يمنحه بالمقابل؟

اختفت ابتسامة الزواحف عن وجه قابيل، وثبَّتَ عينيه على فيكتور كراي. خشي الفتى لوهلةٍ أن ينقضّ الساحر عليه، مستعدًّا لتمزيقه إربًا. وفي النهاية ابتسم قابيل من جديد وتنهَّد.

- فتىً ذكيّ. هذا يعجبني يا فيكتور. ولكن ما زال أمامك الكثير لتتعلَّمه. عندما تصبح جاهزًا، تعال إليّ. تعرف كيف تجدني. آمل أن أراك عمّا قريب.

- أشكّ في ذلك. - ردّ فيكتور بينما كان ينهض ويتّجه نحو المخرج.

استأنفت المرأة المشي، في محاولةٍ لمرافقته، مثل دمية محطّمة شدّوا خيطها على حين غرّة. وحين اقترب من المخرج، دوّى صوت قابيل ثانيةً خلف ظهره.

- شيءٌ آخر يا فيكتور. يتعلّق بالأمنيات. سيبقى العرض ساريًا. فإن لم تكن مهتمًّا، لعلَّ فردًا آخر من عائلتك اللامعة والسعيدة يخفي حلمًا لا يسعه الاعتراف به. هذا اختصاصي...

لم يتوقّف فيكتور ولم يردّ، بل خرج إلى هواء المساء المنعش. تنفَّسَ بعمق واتّجه بخطواتٍ سريعة للبحث عن عائلته. وبينما كان يبتعد، تلاشت ضحكة الدكتور قابيل خلفه مثل غناء ضبع، لتختلط بأنغام الخيول الدوّارة.

*

كان ماكس، حتّى ذلك الحدّ، يصغي مسحورًا إلى حكاية العجوز دون أن يجرؤ على صياغة أيٍّ من التساؤلات التي كانت تنبري في رأسه. بدا أنّ فيكتور كراي يقرأ أفكاره فأشار إليه بإصبع الاتّهام.

- صبرًا يا فتى. ستلتحم كلُّ الأجزاء في اللحظة المناسبة. المقاطعة محظورة. مفهوم؟

ومع أنّ التحذير كان موجَّهًا إلى ماكس، أومأ الأصدقاء الثلاثة في آنٍ معًا.

- جيّد، جيّد. . . - غمغم حارس المنارة هامسًا.

*

- في المساء نفسه قرّرتُ أن أبتعد إلى الأبد عن ذلك الفرد، وأن أحاول أن أمحو من ذهني أيَّ هاجسٍ متعلِّقٍ به. وليتها كانت بهذه السهولة. فبصرف النظر عن هويّته، كان الدكتور قابيل يتمتّع بقدرةٍ نادرةٍ على الاندساس في دواخلك مثل تلك الشظيّة التي كلّما حاولتَ استئصالها توغَّلت أكثر في العمق من جلدك. ولم يكن بوسعي أن أحدِّث أحدًا بشأنه، إلّا إذا أردتُ أن يحسَبوني مجنونًا، ولا أن أشتكيه للشرطة، لأنّني لم أكن أعرف من أين أبدأ. فتركتُ الزمن يأخذ مجراه، مثلما تنصّ الحكمة في حالاتٍ كهذه.

كانت الأمور على ما يرام، في بيتنا الجديد، وحظيتُ بفرصة التعرُّف على شخصٍ ساعدني كثيرًا. هو راهبٌ كان يعلِّم الرياضيّات والفيزياء في المدرسة. بدا لي في الوهلة الأولى شاردًا بين الغيوم على الدوام، لكنّه كان رجلَ فطنةٍ لا تُقارَن إلّا بلطفه، وهو يبذل جهدًا في التخفّي وراء تجسُّده المقنع في أن يكون العالِمَ بهلولَ البلدة. كان هو الذي شجّعني على الدراسة بتعمُّق واكتشاف الرياضيّات. وليس من المستغرب أنّ نزعتي نحو العلوم أخذت تزداد وضوحًا، بعد التتلمذ على يده عدّة أعوام. في البدء أردتُ اتّباع خطاه وتكريس نفسي للتعليم، لكنّ الراهب وبَّخني بشدّة وقال ينبغي أن أذهب إلى الجامعة، وأن أدرس هناك لكي أصبح أفضل مهندسٍ عرفته البلاد. فإمّا فعلتُ كذا وإمّا حرمني من تحيّته على الفور.

وبفضل مساعيه حصلتُ على منحةٍ للدراسة في الجامعة، واتّجهت حياتي حقًّا نحو ما كانت ستؤول إليه. توفّي قبل أسبوعٍ من تخرُّجي. لم أعد أخجل إذا قلتُ إنّ رحيله آلمني بقدر ما آلمني رحيل والدي. وفي الجامعة حظيتُ بفرصة إقامة صداقةٍ مع الذي جعلني ألتقي من جديد بالدكتور قابيل: طالبُ طبٍّ شابٌّ وينتمي إلى عائلة ثريّةٍ بشكلٍ لا يوصف (أو هذا ما بدا لي، على الأقلّ)، واسمه ريتشارد فليشمان. هو الذي أصبح الطبيب فليشمان مستقبلًا، الذي أمر ببناء بيت الشاطئ بعد أعوام.

كان ريتشارد فليشمان شابًّا انفعاليًّا وميّالًا إلى المبالغات. فلقد اعتاد طوال حياته واقعَ أنّ الأشياء تتولّد بناءً على رغبته، وعندما يتعارض أمرٌ مّا مع توقّعاته، لسببٍ مّا، يستشيط غضبًا من العالم بأسره. وقد أصبحنا صديقين بفضل سخرية القدر: عشقنا المرأة نفسها، إيڤا غري، ابنة أحد أساتذة الكيمياء في الكلّيّة وأكثرهم غلظةً وطغيانًا.

في البدء كنّا نخرج نحن الثلاثة معًا، ونتنزّه في أيّام الأحد، قبل أن يمنعها الغول ثيودور غري عن ذلك. لكنّ هذه التسوية لم تدم طويلًا. أغرب شيء هو أنّنا، فليشمان وأنا، بدلًا من أن نصبح خصمين، أمسينا رفيقين لا يفترقان. وفي كلّ مساء نعيد فيه إيڤا إلى مغارة الغول، كنّا نعود إلى البيت معًا، مدركين أنّ واحدًا من كلينا، عاجلًا أم آجلًا، سيغدو خارج اللعبة.

وقبل أن يحين ذلك اليوم، أمضينا أفضل عامين أذكرهما في حياتي. إلّا أنّ لكلّ شيء نهاية. وقد حانت نهاية ذلك الثلاثيّ

الذي لا يتجزّأ في ليلة التخرُّج. ومع أنّي حصلتُ على كلّ الثناءات التي يمكن تخيُّلها، كانت روحي تتألّم على فقدان مرشدي العجوز، فقرّر ريتشارد وإيڤا، على الرغم من أنّني لا أشرب في العادة، أن أثمل لكي أسلو التعاسة بأيّ وسيلة. ولا داعي للقول إنّ الغول ثيودور، الأصمّ كالحائط مع أنّ أذنه تبدو تثقب الجدران، اكتشف الخطّة وانتهت بنا الحال فليشمان وأنا إلى قضاء الأمسية بمفردنا، ثملين حتّى النخاع، في حانةٍ نتنة حيث رحنا نمتدح موضوع عشقنا المستحيل، إيڤا غري.

في تلك الليلة نفسها، وبينما كنّا نترنّح على طريق العودة إلى الكلّيّة، تبدّت مدينة ملاهٍ متنقّلة من بين الضباب بالقرب من محطّة القطار. أيقنّا فليشمان وأنا بأنّ جولةً على الخيول الدوّارة ستؤمّن لنا شفاءً مضمونًا لحالتنا، فدخلناها وانتهت خطواتنا أمام باب كشك الدكتور قابيل، العرّاف والمنجّم والساحر، وفقًا لما فتئت اللافتة المشؤومة تكرّره. خطرت لفليشمان فكرةٌ عبقريّة. كنّا سندخل ونسأل العرّاف أن يحلّ لنا اللغز: مَن منّا ستختار إيڤا؟ على الرغم من ذهولي، كان ما يزال في جسدي حسٌّ سليمٌ يكفيني لعدم الدخول، إنّما نقصتني القوّة اللازمة لإيقاف صديقي، الذي ولج الكشك حاسمًا أمره.

أعتقد أنّي فقدتُ حواسي لأنّي لا أذكر الساعات اللاحقة جيّدًا. فعندما استعدتُ وعيي، مع عذاب صداعٍ فاتك، كنّا فليشمان وأنا ممدّدين على مقعدٍ خشبيّ قديم. كان الصباح يطلع، وعربات الملاهي اختفت، كما لو أنّ كلَّ عالم الأضواء والصخب

والزحمة في الليلة الماضية ما كان سوى إيهامٍ من صنع ذهننا المنتشي بالكحول. سألتُ صديقي إن كان يذكر شيئًا من الليلة السابقة. بذل فليشمان جهدًا ليقول لي إنّه حلم بدخول كشك عرّاف، وإذ سأله ما أقصى أمنياته أجاب أنّه يريد حبّ إيڤا غري. ثمّ أخذ يضحك، ساخرًا من صحونا الثمل والخياليّ، مقتنعًا أنّ لا شيء من كلّ ما رواه قد وقع فعلًا.

بعد شهرين، تزوّج ريتشارد فليشمان بإيڤا غري. لم يدعواني حتّى إلى الزفاف. ولم أكن لأراهما إلّا بعد خمسة وعشرين عامًا طويلة.

*

- وفي يومٍ ماطرٍ من الشتاء، تعقّبني رجلٌ متدثّرٌ بسترةٍ مطريّة من المكتب إلى البيت. رأيتُ من نافذة صالة الطعام أنّ الغريب ما زال في الأسفل يراقبني. تردّدتُ قليلًا ثمّ خرجتُ إلى الشارع، متأهّبًا لفضح الجاسوس الغامض. كان هو ريتشارد فليشمان، تصطكّ أسنانه بردًا، وقد فعلت السنون فعلها على وجهه. وكانت عيناه عيني رجلٍ مطارَدٍ طوال عمره. تساءلتُ كم شهرًا لم ينم صديقي القديم. أصعدتُه وقدّمتُ له فنجان قهوة ساخنة. ومن دون أن يجرؤ على النظر إلى وجهي، سألني عن تلك الليلة في كشك الدكتور قابيل التي مرّت عليها أعوامٌ كثيرة.

لم تكن لديّ رغبة في المجاملات، لذا سألته ما الذي طلبه قابيل منه مقابل تحقيق أمنيته. ركع فليشمان أمامي، وقد اكتسحه الخوفُ والعار، ورجاني بدموعه الحارّة أن أساعده. لم ألقِ بالًا

لنحيبه وطالبتُه بإجابة. ما الذي وعد به الدكتور قابيل ثمنًا لخدماته؟

- ابني الأوّل - أجابني - وعدتُه بابني الأوّل...

*

- اعترف لي فليشمان أنّه طوال أعوام زوَّدَ زوجته، من دون أن تدري، بعقارٍ يمنعها من إنجاب أطفال. وهذا ما جعل إيڤا مع مرور الوقت تتدهور إلى اكتئابٍ عميق، وحوَّل غيابُ الابن المرتجى زواجهما إلى جحيم. وكان فليشمان يخشى أنّ إيڤا إذا لم تحبل ستجنّ عمّا قريب أو ستغرق في حزنٍ لا ينتهي، وستنطفئ حياتها يومًا بعد يوم مثل شمعةٍ ينقصها الهواء. قال لي إنّه ليس لديه مَن يلجأ إليه وتوسَّلَ أن أسامحه وأن أساعده. وفي النهاية قلت له إنّني سأساعده، لا من أجله، إنّما للصلة التي ما زالت تجمعني بإيڤا غري ولذكرى صداقتنا القديمة.

في ذلك المساء طردتُه من بيتي، إنّما بقصدٍ مختلفٍ تمامًا عمّا فهمه الرجل الذي اعتبرته صديقي ذات يوم. لحقتُ به تحت المطر واجتزتُ المدينة في تعقُّب أثره. كانت معدتي تنقلب لمجرّد التفكير في أنّ إيڤا غري، التي رفضتني عندما كنّا شبّانًا، ستُجبَر على منح ابنها لذلك المشعوذ البائس، وهذا ما دفعني لمواجهة الدكتور قابيل ثانيةً، حتّى لو أنّ شبابي صار خلفي وأنّي بتُّ مدركًا إمكانيّة خروجي مهزومًا من تلك المواجهة.

قادتني خطوات فليشمان إلى المخبأ الجديد الذي عرفتُه منذ زمن: أمير الضباب. صار منزله آنذاك سيركًا. فوجئتُ بأنّ الدكتور

قابيل استغنى عن مرتبته كعرّافٍ ومنجّم ليتّخذ شخصيّةً جديدة، أكثر تواضعًا لكنّها أكثر تناغمًا مع حسّ الفكاهة لديه. كان آنذاك مهرِّجًا يؤدّي عروضه بوجهٍ مطليٍّ بالأبيض والأحمر، مع أنّ لون عينيه المتقلّب يشي بهويّته حتّى لو تقنَّعَ بعشرات القشور من المساحيق. رفع سيرك قابيل النجمة السداسيّة على قمّة سارية وكان الساحر محاطًا بجوقةٍ مشؤومةٍ من الأصحاب الذين بدوا أنّهم يخفون شيئًا مريعًا خلف مظهرهم كفنّاني عروض. تجسّستُ على سيرك قابيل طوال أسبوعين، وسرعان ما اكتشفتُ أنّ الخيمة البالية والمصفرّة تخفي عصابة خطيرة من المحتالين، واللصوص والمجرمين الذين يعمدون إلى السرقة أينما حلّوا. اكتشفتُ أيضًا أنّ الحِرَفيّة الضئيلة التي استخدمها الدكتور قابيل في انتقاء عبيده جعلته يخلِّف وراءه خطًّا صادحًا من الجرائم وحالات الاختفاء وعمليّات السطو، التي لم تغفل عنها الشرطة المحلّيّة وهي تشمّ نتانة الفساد المنبعثة من ذلك السيرك الغرائبيّ.

وكان قابيل على دراية بالوضع بطبيعة الحال، لذا قرّر أن يختفي من البلد مع أصدقائه دون أن يضيّع الوقت، إنّما بطريقةٍ مدروسة، وحبّذا لو تجنَّبَ الإجراءات المزعجة التي تقوم بها الشرطة. فانتهز دَيْنًا من لعبة قمار قدَّمته له سذاجة القبطان الهولنديّ على طبقٍ من فضّة في الوقت المناسب، فاستطاع الدكتور قابيل في تلك الأمسية أن يركب على متن الأورفيوس. وأنا معه.

لكنَّ ما حصل في ليلة العاصفة غريبٌ حتّى إنّني لا أقوى على

تفسيره. عاصفةٌ رهيبةٌ سحبت السفينة نحو الشاطئ من جديد وحطَّمتها على الصخور، لتثقب الهيكل وتسرِّبَ الماءَ إليه ويغرق في غضون ثوانٍ. كنت مختبئًا في أحد زوارق النجاة، الذي انفصل من شدّة الارتطام ودفعته الأمواج إلى الشاطئ. هكذا فقط تمكّنتُ من النجاة. كان قابيل وأتباعه مسافرين في قاع السفينة، مختبئين تحت الصناديق مخافةً من تفتيش عسكريّ محتمل في القناة عند منتصف العبور. ومن الوارد أنّهم لم يدركوا حتّى ما الذي كان يحدث، عندما فاضت المياه المتجمّدة بباطن المركب. . .

*

- ورغم هذا - قاطعه ماكس أخيرًا - لم يُعثَر على الجثث.

نفى فيكتور كراي برأسه.

- غالبًا، أثناء أعاصير مشابهة، يقذف البحرُ الجثثَ بعيدًا. - علَّقَ حارس المنارة.

- لكنّه يعيدها لاحقًا، وإن بعد عدّة أيّام. - ردّ ماكس - لقد قرأتُ ذلك.

- لا تثق بكلّ ما تقرأه. - قال العجوز - حتّى لو كان الأمر صحيحًا في هذه الحالة.

- فما الذي حدث إذن؟ - تحرّت أليسيا.

- كان لديّ نظريّة طوال أعوام لم أكن أصدِّقها أنا نفسي. إلّا أنّ الآن يبدو أنّ كلّ شيء يثبت صحّتها. . .

*

- كنتُ الناجي الوحيد من غرق الأورفيوس. ومع ذلك، عندما استعدتُ وعيي في المستشفى، أدركتُ أنّ شيئًا غريبًا قد وقع. قرّرتُ أن أبني هذه المنارة وأن أبقى للعيش هنا، لكنّ هذا الجزء من الحكاية تعرفونه مسبقًا. كنت أعلم أنّ تلك الليلة لم تكن تعني رحيل قابيل، إنّما مجرّد قوسٍ مفتوح. ومع الوقت، عندما توفّي والدا رولاند، أخذتُ على عاتقي الاعتناء به، وهو في المقابل ظلَّ رفيقي الوحيد في منفاي.

لكنّ هذا ليس كلّ شيء. فمع مرور السنوات، اقترفتُ خطأً فادحًا آخر: حاولتُ أن أتواصل مع إيڤا غري. أظنّ أنّني أردت أن أعرف إذا كان لكلّ ما مررتُ به معنى مّا. سبقني فليشمان، وإذ اكتشف مخبأي، جاء لزيارتي. شرحتُ له ما حدث فبدا أنّه تخلَّصَ من كلّ الأشباح التي عذّبته طوال أعوام. قرّر أن يبني بيت الشاطئ وبعدها بفترة ولد الصغير جاكوب. وكانت تلك أجمل السنوات من عمر إيڤا. إلى أن مات الطفل.

في اليوم الذي غرق فيه جاكوب فليشمان، عرفتُ أنّ أمير الضباب لم يرحل على الإطلاق. كان قد بقي في الظلّ، بلا عجالة، يترقَّب قوَّةً مّا تعيده إلى عالم الأحياء. لا شيء يمتلك قوّةً شديدةً بقدر الوعد...

الفصل الحادي عشر



عندما أنهى حارس المنارة العجوز حكايته، كانت ساعة ماكس تشير إلى الخامسة ظهرًا إلّا عشر دقائق. وفي الخارج بدأ المطر الناعم ينهمر على الخليج، والريح الآتية من جهة البحر تصفق مصاريع النوافذ في بيت المنارة بإلحاح.

- هناك عاصفةٌ تقترب. - قال رولاند، وهو يرنو إلى أفق المحيط الرصاصيّ.

- ماكس، يجدر بنا أن نعود إلى البيت. سيتّصل بابا بعد قليل. - غمغمت أليسيا.

أومأ ماكس عن غير اقتناع. كان في حاجةٍ إلى تقييمٍ مكثّفٍ لكلّ ما قصّه العجوز، لكي يحاول أن يرتّب أجزاء الأحجية. وكان الرجل، الذي بدا غارقًا في صمتٍ خاملٍ من جهوده في تذكُّر حكايته، جالسًا على الأريكة يحدّق في الفراغ، شاردًا.

- ماكس... - ألحَّت أليسيا.

نهض أخوها ووجَّهَ تحيّة صامتة إلى العجوز، الذي ردَّ بإيماءة قبول. رمق رولاند جدّه قليلًا ثمّ رافق صديقيه إلى الخارج.

- والآن؟ - سأل ماكس.

- أنا حائرة. - أكّدت أليسيا وهي ترفع كتفيها.

- ألا تصدّقين حكاية جدّ رولاند؟ - تحرّى ماكس.

- ليست حكايةً من السهل تصديقها. - أجابت أليسيا - لا بدّ أن يكون هناك تفسيرٌ آخر.

نظر ماكس إلى صديقه بملامح استجوابيّة.

- وأنت أيضًا لا تصدِّق جدّك، يا رولاند؟

- هل تريد الصراحة؟ - ردّ الفتى - لا أدري. هيّا. سأرافقكما، قبل أن تصل العاصفة.

ركبت أليسيا على درّاجة رولاند، وانطلق الاثنان على طريق العودة دون أن ينبسا بكلمة. التفت ماكس برهةً لينظر إلى بيت المنارة وحاول أن يتخيّل ما إذا كانت أعوام العزلة فوق ذاك الجرف دفعت فيكتور كراي لاختلاق الحكاية المشؤومة التي بدا أنّه يصدِّقها من دون شكّ. سمح للمطر الخفيف والبارد أن يبلّل وجهه وركب الدرّاجة، وهبط المنحدر.

ما زالت حكاية قابيل وفيكتور كراي حيّةً في ذهنه بينما كان يدلف إلى الطريق المحاذي للخليج. بدأ ماكس، وهو يتدرّج تحت المطر، يرتِّب الأحداث بالصيغة الوحيدة التي تبيَّنَ أنّها معقولة. فإذا افترضنا صحّة كلّ ما ورد على لسان العجوز، الأمر الذي

ليس من السهل قبوله، يبقى الوضع قليلَ الوضوح. ساحرٌ جبّار غارقٌ في سباتٍ طويل يعود إلى الحياة ببطء. وبناءً على هذا المبدأ، يتّضح أنّ وفاة جاكوب فليشمان الصغير هي أولى دلالات عودته. ومع هذا، من وجهة نظر ماكس، فإنّ شيئًا مّا يبدو غير منطقيّ في الحكاية التي ظلّت طيَّ الكتمان لوقتٍ طويل من قِبَلِ حارس المنارة.

صبغت أوائلُ البرق السماءَ بالقرمزيّ، وبدأت الريح تبصق قطرات كبيرة من المطر بشدّة على وجه ماكس. أسرع الوتيرة، مع أنّ ساقيه لم تتعافيا بعْدُ من ماراثون الصباح. بقي أمامه كيلومتران للوصول إلى البيت.

أدرك ماكس أنّه لن يكون بوسعه تقبُّل حكاية العجوز ببساطة، ولا الافتراض أنّها تشرح كلَّ شيء. لأنّ الوجود الشبحيّ لحديقة التماثيل، وأحداث تلك الأيّام الأولى في البلدة، أوضحت أنّ آليّةً مشؤومةً بدأت تشتغل وأن لا أحد كان قادرًا على التنبؤ بما الذي سيقع بدءًا من تلك اللحظة. صمَّمَ ماكس على المضيّ في الاستقصاء حتّى يبلغ قاع الحقيقة، مع أو من دون مساعدة رولاند وأليسيا، وعزم على البدء من الأمر الوحيد الذي يبدو أنّه يؤدّي مباشرةً إلى قلب اللغز: أفلام جاكوب فليشمان. فكلّما فكّر في تلك القصّة، أيقن أنّ فيكتور كراي لم يروِ الحقيقة كاملةً. بل على النقيض منها.

*

كان رولاند وأليسيا ينتظران في المستراح عندما ترك ماكس

درّاجته تحت سقيفة المرأب وركض، مبلّلًا بالمطر، ليلوذ من الطوفان.

- هذه هي المرّة الثانية منذ بداية الأسبوع. - ضحك ماكس - سأقلّص هذه الخطوة. لن تعود إلى البيت الآن، أليس كذلك يا رولاند؟

- أظنّ أنّني سأعود. - أجاب وهو ينظر إلى ستارة الماء الكثيفة التي تسقط كالغضب - لا أودّ أن أترك جدّي وحيدًا.

- ضع عليك سترةً مطريّة على الأقلّ. لئلا تصاب بذات الرئة.

- لا داعي. فأنا معتاد. ثمّ إنّها عاصفة صيفيّة. ستنقضي بسرعة.

- صوت الخبرة. - مازحه ماكس.

- بالضبط. - ردّ رولاند.

تبادل الأصدقاء الثلاثة نظرةً صامتة.

- أعتقد أنّ الأفضل هو عدم التحدّث بالموضوع حتّى الغد. - اقترحت أليسيا - فالنوم في ليلة هانئة سيعيننا على رؤية الأمور بشكلٍ أوضح.

- ومَن سينام هذه الليلة، بعد حكايةٍ من ذلك النوع؟ - اِعترف ماكس.

- أختك على حقّ. - قال رولاند.

- متملّق. - قاطعه ماكس.

- فلنغيّر الموضوع، كنت أفكّر في العودة غدًا إلى السفينة

للغوص. لعلّي أعثر على السُّدْسية التي فلتت من يد أحدهم في الأمس... - فسَّرَ رولاند.

كان ماكس يحضِّر إجابةً حادّة ليوضِّح أنّه لا يرى العودة إلى الأورفيوس فكرةً سديدة، لكنّ أليسيا سبقته.

- سنلتقي هناك. - غمغمت.

أنبأت حاسّة ماكس السادسة أنّ صيغة الجمع تلك كانت من باب المجاملة ليس إلّا.

- إلى الغد إذن. - أجاب رولاند، وعيناه تلمعان وتحدِّقان إلى أليسيا.

- إنّني هنا. - قال ماكس بصوت منغِّم.

- إلى الغد يا ماكس. - قال رولاند وهو على سرج درّاجته.

رآه الشقيقان يمضي تحت العاصفة وظلّا في المستراح إلى أن اختفى طيفه على امتداد طريق الشاطئ.

- عليك أن ترتدي ثيابًا ناشفة يا ماكس. سأحضِّر شيئًا للعشاء، ريثما تبدِّل ملابسك. - اقترحت أليسيا.

- أنتِ؟ - انفجر ماكس - لا تجيدين الطبخ.

- ومَن أخبرك بأنّي أريد الطبخ أيّها السيّد الصغير؟ هذا ليس فندقًا. إلى الداخل. - أمرته أليسيا، بابتسامةٍ ماكرة على شفتيها.

آثَرَ ماكس اتّباع نصائح أخته ودخل إلى البيت. كان غياب إيرينا والوالدين يعزّز إحساسه بأنّه دخيلٌ على مكانٍ غريب وقد تملَّكه هذا الإحساس منذ يومه الأوّل في بيت الشاطئ. وبينما كان يصعد السلالم نحو غرفته، فكَّر لوهلةٍ أنّه لم ير قطّ إيرينا البغيض

منذ يومين. لم تبدُ له خسارةً فادحة، فنسي هذا التفصيل مثلما راوده تمامًا.

*

إيفاءً بكلمتها، لم تضيّع أليسيا في المطبخ حتّى ثانية إضافيّة من الوقت الضروريّ والضيّق. حضَّرت شرائح من خبز الشيلم بالزبد والمربّى وكوبَين من الحليب. عندما نظر ماكس إلى طبق العشاء المزعوم، تكلَّمَت تعابير وجهه.

- إيّاك أن تنبس بكلمة واحدة. - هدَّدته أليسيا - لم آتِ إلى هذا العالم للطبخ.

- لا تحلفي على ذلك. - ردَّ ماكس، الذي لم تكن لديه شهيّة بكلّ الأحوال.

تعشّيا صامتين بانتظار رنين الهاتف في أيّ لحظة بأخبارٍ من المستشفى، لكنّ الاتّصال لم يُجرَ.

- ربّما اتّصلوا في السابق، عندما كنّا في المنارة. - افترض ماكس.

- ربّما. - غمغمت أليسيا.

انتبه ماكس إلى مظهر شقيقته القَلِق.

- لو أنّ مكروهًا وقع، لاتّصلوا ثانيةً. سيكون كلّ شيء على ما يرام. - برهن ماكس.

ابتسمت له أليسيا على مضض، لتؤكّد له قدرته الفطريّة على طمأنة الآخرين بحججٍ لا يصدِّقها هو نفسه.

- أتخيّل ذلك. - أكدّت أليسيا - أظنّ أنّني سأنام. وأنت؟

- أنا أيضًا، ولكن قبل ذلك سآكل شيئًا آخر. أنا جائع. - كذب.

وما إن سمع باب غرفة أليسيا ينغلق، وضع ماكس الكوب وذهب إلى المرأب، بحثًا عن أفلامٍ أخرى من المجموعة الخاصّة لجاكوب فليشمان.

*

شغَّلَ ماكس العارضَ فأفاضت حزمة الضوء على الجدار بصورةٍ متذبذبة ممّا بدا أنّه مجموعة من الرموز. تشكَّلَ الإطار ببطء، وأدرك ماكس أنّ الرموز المزعومة لم تكن سوى أرقام متموضعة في دائرة: كان يرى وجه ساعة. العقارب ثابتة وتعرض ظلًّا محدّدًا بشكلٍ تامّ، ما يسمح بالافتراض أنّ المشاهد صُوِّرَت في وضح النهار أو تحت مصدرٍ ضوئيٍّ كثيف. يتابع الفيلم بإظهار وجه الساعة عدّة ثوانٍ إلى أن تبدأ العقارب تدور، ببطءٍ في البداية ثمّ بتسارعٍ تدريجيّ، بالمقلوب. كانت الكاميرا تتراجع لتستطيع عين المشاهد أن تدرك أنّ الساعة تتدلّى من سلسلة. ثمّ تتراجع الكاميرا ثانيةً مترًا ونصف لتبيِّن أنّ السلسلة تتدلّى من يدٍ بيضاء. يد أحد التماثيل.

استطاع ماكس مباشرة أن يعرف حديقة التماثيل التي ظهرت في فيلم جاكوب فليشمان الذي عرضوه في اليوم السابق. ومرّةً أخرى، كانت وضعيّة التماثيل مختلفةً عمّا يذكرها. بدأت الكاميرا تتحرّك من جديد بين الأشكال، بلا قطعٍ أو فصل، مثلما في الفيلم الأوّل. وكانت العدسة تتوقّف كلَّ مترين قبالة وجه واحدٍ من

التماثيل. عاين ماكس الوجوه الجامدة لفرقة السيرك المشؤومة تلك، وجهًا بعد وجه، والتي صار بوسعه آنذاك أن يتخيّل أفرادها وهم في الظلمة المطلقة التي تخيّم على عنبر الشحن في سفينة الأورفيوس بينما كانت المياه المتجمّدة تنتزع حياتهم.

وفي النهاية اقتربت الكاميرا ببطء إلى الشكل الذي يتوِّج مركز النجمة السداسيّة. المهرّج. الدكتور قابيل. أمير الضباب. تبدّى لماكس أنّ بجانبه، عند قدميه، ثمّة مقطعًا جانبيًّا لقطٍّ متحجّرٍ يمدّ في الفراغ مخلبه الحادّ. لا يذكر ماكس أنّه رآه أثناء زيارته لحديقة التماثيل، لكنّه كاد يجزم أنّ الشبه المقلق بين القطّ الحجريّ والهرّ الذي تبنَّته إيرينا في اليوم الأوّل في المحطّة، ليس من ثمار الصدفة. كان تفحُّص تلك الصور، بينما ينقر المطر الزجاج والعاصفة تبتعد نحو المناطق الداخليّة، يبيِّن أنّه من السهل تصديق الحكاية التي قصَّها حارس المنارة في تلك الظهيرة. فالحضور المشؤوم لتلك الأشكال المتوعّدة يكفي لإسكات أيّ شكّ، مهما كان منطقيًّا.

اقتربت الكاميرا من وجه المهرّج، توقّفت على بُعد نصف متر وظلّت هكذا بضع ثوان. ألقى ماكس نظرة على البكرة ولاحظ أنّ الشريط يشرف على النهاية: تبقّى منه متران فقط. استدعت حركةٌ على الشاشة انتباهه مجدّدًا. كان الوجه الحجريّ يتحرّك بطريقة غير محسوسة أو تكاد. نهض ماكس وذهب نحو الحائط حيث يُعرَض الفيلم. توسَّعت حدقتا تينك العينين الحجريّتين وتقوّست الشفتان ببطء لتتحوّلا إلى ابتسامةٍ قاسية، إلى أن أبرزت صفًّا من

الأسنان الطويلة والمدبّبة كأنياب الذئب. أحسَّ ماكس بعقدةٍ في حلقه.

وبعد ثانية، اختفت الصورة وسمع ماكس صوت البكرة وهي تدور فارغةً. انتهى الفيلم. أطفأ العارض وتنفَّسَ بعمق. كان حينذاك يصدِّق كلَّ ما قاله فيكتور كراي، لكنّ هذا لم يطمئنه البتّة، بل على العكس. صعد إلى غرفته وأغلق الباب خلفه. استطاع أن يلمح حديقة التماثيل في البعيد من النافذة. مرّةً أخرى، كان طيف السياج الحجريّ غارقًا في ضبابٍ كثيف ومتماسك. إلّا أنّ الظلمات في تلك الليلة، لم تكن آتيةً من الغابة، إنّما بدت نابعةً من قرارة نفسه.

وبعد بضع دقائق، بينما كان يغالب لمعانقة النعاس ومحو وجه المهرّج من ذهنه، تخيَّلَ ماكس أنّ ذلك الضباب ما كان سوى الأنفاس الجامدة للدكتور قابيل، وهو يتحيّن مبتسمًا أوانَ العودة.

الفصل الثاني عشر



استيقظ ماكس في الصباح التالي يراوده إحساسٌ بأنّ رأسه مليء بالجيلاتين. تبدّى له من النافذة ما يعد بنهارٍ مشمسٍ وباهر. نهض بكسل وأخذ ساعة الجيب من على الدُّرج. وكان أوّلُ ما تبادر إلى ذهنه أنّها تعطّلت. قرَّبَها من أذنه وتحقَّقَ من أنّ آليّة الساعة تعمل بإتقان، إنّما هو الذي تعطَّلت آليّته. كانت الثانية عشرة ظهرًا.

قفز عن السرير وتدحرج على السلالم. ثمّة بطاقة على الطاولة في صالة الطعام. أمسكها وقرأ خطَّ شقيقته الدقيق.

صباح الخير أيّتها الحسناء النائمة.

عندما ستقرأ هذه البطاقة، سأكون على الشاطئ مع رولاند. استعرتُ الدرّاجة، آمل ألّا يؤسفك ذلك. لاحظتُ أنّك في هذه الليلة كنتَ «في السينما» فلم أشأ إيقاظك. اتّصل بابا هذا الصباح باكرًا وقال إنّهم لا يعلمون حتّى الآن متى بإمكانهم العودة إلى البيت. ما زالت إيرينا على حالها، ولكن بحسب الأطبّاء فمن

المحتمل أنّها ستصحو من الغيبوبة خلال بضعة أيّام. أقنعتُ بابا ألّا يقلق بشأننا (ولم يكن الأمر سهلًا).

بطبيعة الحال، لا يوجد شيء على الفطور.

نحن على الشاطئ. أحلامًا سعيدة...

أليسيا

أعاد ماكس قراءة البطاقة ثلاث مرّات قبل أن يعيدها إلى الطاولة. ركض إلى الأعلى وغسل وجهه بعجالة. ارتدى ثياب سباحة وقميصًا أزرق، ثمّ ذهب إلى المرأب ليأخذ الدرّاجة الأخرى. وقبل أن يصل إلى طريق الشاطئ، كانت معدته تطالب بالتزوُّد بالجرعة الصباحيّة. وصل إلى البلدة، وانعطف نحو فرن ساحة البلديّة. كانت العطور تفوح على بُعد خمسين مترًا، وقرقرة بطنه المستحسنة تؤكّد له أنّه اتّخذ القرار الصحيح. ثلاث كعكات وقطعتان صغيرتان من الشوكولاتة لاحقًا. استأنف تدرُّجه نحو الشاطئ بابتسامة قدّيسٍ مطبوعةٍ على وجهه.

*

كانت درّاجة أليسيا مركونةً على مسندها عند أوّل الدرب المؤدّي إلى الشاطئ حيث كوخ رولاند. ترك ماكس الدرّاجة بجانب درّاجة أخته وفكَّرَ أنّه لا بأس بشراء أقفال، مع أنّ البلدة لا تبدو وكرًا للصوص. توقَّفَ يتأمّل المنارة في قمّة الجرف ثمّ اتّجه إلى الشاطئ. وبعد مترين قبل نهاية الدرب العشبيّ الذي يفضي إلى الخليج الصغير، توقَّف.

على الشطّ، على بُعد عشرين مترًا تقريبًا من حيث وقف ماكس. كانت أليسيا مستلقية على الرمل. وكان رولاند منحنيًا عليها، واضعًا يده على خاصرتها، ودنا منها وقبَّلَ ثغرها. تراجع ماكس مترًا واختبأ بين الحشائش، راجيًا أنّهما لم يلحظا وجوده. ظلَّ هناك، متحجّرًا، عدّة ثوان، متسائلًا ما الذي ينبغي فعله. هل يظهر مبتسمًا مثل الغبيّ ويقول «صباح الخير»؟ أم أن ينصرف للقيام بنزهة؟

لم يكن ماكس يعدّ نفسه جاسوسًا، لكنّه لم يقوَ على تمالك أعصابه للنظر مجدّدًا إلى شقيقته ورولاند من بين سيقان النباتات البرّيّة. كان يسمع ضحكاتهما ويرى يدي رولاند تمضي بخجلٍ على جسد أليسيا، بارتعاشةٍ تدلّ على أنّها المرّة الأولى، أو الثانية كحدٍّ أقصى، التي يتواجد فيها رولاند بوضعٍ كهذا. فتساءل ماكس إن كانت هي المرّة الأولى أيضًا لأليسيا، وفوجئ أنّه ليس قادرًا على الإجابة عن ذلك التساؤل. فمع أنّهما عاشا معًا الحياة بأكملها تحت سقفٍ واحد، تبقى أخته لغزًا في رأيه.

بدا له أنّ رؤيتها هناك، مستلقية على الشاطئ تقبِّل رولاند، هو أمرٌ محيِّرٌ وغير متوقّع إطلاقًا. لقد أحسَّ منذ البدء بوجود شعورٍ متبادل بينهما، إلّا أنّ تخيُّلَ المشهد شيء، ورؤيته بأمّ العين شيءٌ آخر تمامًا. انحنى مرّة أخرى ليسترق النظر فشعر فجأةً أنّه ليس من حقّه البقاء هناك: تلك اللحظة هي لأخته ولرولاند فقط. فعاد إلى الدرّاجة بصمت، وابتعد عن الشاطئ.

وفي الأثناء تساءل ما إذا كان غيورًا. ربّما اقتصر الموضوع

على فكرة أنّه أمضى أعوامًا موقنًا بأنّ أخته طفلة، لا أسرار لديها من أيّ نوع، وأنّها بالطبع لا تجوب الأرض لتقبيل الناس. ضحك قليلًا على سذاجته وكاد يشعر بالبهجة لما رآه. ليس بوسعه أن يتنبّأ بما سيحدث في الأسبوع القادم، ولا بما سيؤول إليه الصيف، لكنّ ماكس في ذلك اليوم كان واثقًا من أنّ شقيقته تشعر بالسعادة. وهذا أكثر ممّا كان يقال عنها منذ أعوام.

تدرَّج ماكس من جديد نحو وسط البلدة وأوقف الدرّاجة بجانب المكتب البلديّة. في المدخل طاولة زجاجيّة قديمة أُلصِقَ عليها مواعيد الافتتاح ونشرات أخرى، تشمل البرنامج الشهريّ للسينما الوحيدة على نطاق عدّة كيلومترات وخريطة البلدة. ركّزَ ماكس نظره على الخريطة وعاينها باهتمام. كان شكل البلدة متجانسًا إلى حدٍّ كبير مع النموذج الذي تصوَّره في ذهنه.

وكانت الخريط تبرز بالتفاصيل، الميناء والمركز الحيويّ والشاطئ الشماليّ حيث بيت كارفر والخليج حيث سفينة الأورفيوس والمنارة، ثمّ الملاعب الرياضيّة المجاورة للمحطّة والمقبرة البلديّة. لماذا لم يفكّر في الأمر من قبل؟ نظر إلى الساعة ورأى أنّها الثانية وعشر دقائق. ركب الدرّاجة ودلف إلى الشارع الرئيس، متّجهًا نحو الداخل، نحو المقبرة الصغيرة التي أمل أن يجد فيها قبر جاكوب فليشمان.

*

كانت المقبرة بسياجها المستطيل عند نهاية طريق طويل صاعد ومطوّق بشجر السرو. بناؤها تقليديّ، لا شيء يدلّ على الفرادة

والأصالة. عتقت الأسوار الحجريّة بشكلٍ طفيف، وكان للمكان المظهر المعتاد لمقابر البلدات الصغيرة التي تكون فيها الزيارات ضئيلة، باستثناء بعض الأيّام من السنة والجنازات. كانت البوّابة الحديد مشرعة، وثمّة لافتة معدنيّة علاها الصدأ تعلن عن مواعيد الافتتاح: من التاسعة إلى الخامسة في الصيف ومن الثامنة إلى الرابعة في الشتاء. وإن كان هنالك من حارسٍ للمقبرة، فإنّ ماكس لم يره.

وكان على طول الطريق يتخيَّلُ أنّه سيجد نفسه في مكانٍ كئيبٍ ومشؤوم، لكنّ الشمس الساطعة في مطالع الصيف أعطته مظهر الدير الصغير، والهادئ والحزين بعض الشيء.

أسند ماكس درّاجته إلى السور الخارجيّ وولج إلى المقبرة. بدت مسكونة بأضرحة متواضعة ومن الوارد أنّها للعوائل ذات الوجاهة التقليديّة المحلّيّة، بينما تحيط بها جدرانٌ مزوّدة بمحاريب بُنِيَتْ مؤخّرًا.

قدَّرَ ماكس احتماليّة أن تفضِّل عائلة فليشمان في تلك الحقبة دفن صغيرها جاكوب بعيدًا عن هناك، لكنّ حدسه أخبره بأنّ رفاة وريث الطبيب فليشمان ترقد في البلدة نفسها التي ولد فيها. استغرق قرابة نصف الساعة ليعثر على قبر جاكوب، في أحد أطراف المقبرة، تحت أفياء سروتين قديمتين. ضريحٌ حجريٌّ صغيرٌ وصمَ الزمنُ والمطرُ مظهرَهُ بالهجران والنسيان. كان الضريح ينهض على شكل كشك ضيّقٍ من رخامٍ متفحّم ومتّسخ، وله بابٌ من الحديد المطروق على جانبيه اثنان من تماثيل الملائك يوجِّهان

نظرة متألّمة نحو السماء. وبين قضبان الباب الصدئة ثمّة باقة أزهار متيبّسة منذ زمنٍ سحيق.

شعر ماكس أنّ ذلك المكان يفيض بهالة الشفقة: من الواضح أنّ أحدًا لا يزوره منذ أمدٍ بعيد، ورغم هذا يبدو صدى المرارة والمأساة حديثًا. سار بالدرب المبلّط الصغير المؤدّي إلى الضريح وتوقَّفَ عند العتبة. كان الباب مواربًا، ورائحة الأماكن المغلقة تنبعث من الداخل. وكان الصمت حوله مطبقًا. وجَّهَ نظرة أخيرة إلى الملاكين الحجريّين اللذين يصونان قبر جاكوب فليشمان ودخل، مدركًا أنّه لو انتظر دقيقة أخرى لكان قد انصرف من هناك بعجالة.

كان داخل الضريح غارقًا بالعتمة واستطاع ماكس أن يلمح على الأرض خطًّا من الأزهار الذابلة ينتهي عند أسفل الشاهدة، التي نُقِشَ عليها بأحرفٍ نافرة اسمُ جاكوب فليشمان. ولكنْ هناك شيءٌ آخر. تحت الاسم، كان شعار النجمة السداسيّة والمؤطّرة بدائرة مخيِّمًا على الرخامة التي تغطّي رفاة الطفل.

أحسَّ ماكس بتنميلٍ مزعج في ظهره وتساءل للمرّة الأولى لماذا جاء بمفرده إلى مكانٍ كهذا. بدا ضوء الشمس من خلفه يتقتَّم تدريجيًّا. أخرج ساعته ونظر إليها، مقدِّرًا تلك الفكرة الساذجة عن احِتماليّة أنّه بقي هناك أكثر من اللازم وأنّ حارس المقبرة قد أغلق أبوابها ليتركه سجينًا في الداخل. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة وبضع دقائق. سحب ماكس نفسًا عميقًا واطمأنّ.

ألقى نظرة أخيرة ثمّ تهيّأ للانصراف، بعد أن تحقَّقَ من انعدام

أيّ شيءٍ هناك يمدّه بجديدٍ حول قصة الدكتور قابيل. فإذا به ينتبه أنّه ليس وحده في الضريح وأنّ طيفًا قاتمًا يتحرّك على السقف، ويتقدّم بحذر مثل حشرة. أحسَّ ماكس أنّ الساعة تنزلق من يديه المتعرّقتين إلى الأرض ورفع نظره. كان أحد الملاكين الحجريّين اللذين رآهما عند المدخل يمشي على السقف ورأسه إلى الأسفل. توقّف الطيف، وحدّق إلى ماكس، وأبرز ابتسامة ذئبيّة ووجَّهَ إليه إصبعًا اتّهاميّةً وحادّة. تحوّلت تقاسيم ذلك الوجه ببطء وبرزت على سطحه الملامح المألوفة للمهرّج الذي يتقنَّع به الدكتور قابيل. رأى ماكس في نظراته غضبًا وحقدًا متأجّجين. حاول أن يركض نحو الباب ويهرب، لكنّ ساقيه لم تستجيبا. اختفى الشبح في الظلّ بعد لحظة، وبقي ماكس مشلولًا خمس ثوان طويلة.

استردَّ أنفاسه، فركض نحو المخرج دون أن يتوقّف للنظر إلى الخلف حتّى ركب سرج الدرّاجة ووضع مسافةً من مئة متر بينه وبين بوّابة المقبرة. ساعده التدرُّج بلا استراحة على استعادة السيطرة على أعصابه شيئًا فشيئًا. أدرك أنّه كان ضحيّة خدعةٍ، وتلاعبٍ مشؤومٍ من قِبَلِ مخاوفه ذاتها. ومع هذا، كانت فكرة العودة لاسترجاع ساعته خارج النقاش في تلك اللحظة. وما إن استلهم الهدوء، دلف من جديد إلى الطريق باتجاه الخليج. ولكنّه هذه المرّة لم يكن باحثًا عن أليسيا وورولاند، إنّما عن حارس المنارة العجوز، فما زال لديه بعض الأسئلة ليطرحها عليه.

*

أصغى العجوز إلى ما حدث في المقبرة بانتباهٍ شديد. وفي

نهاية الحكاية، عبَّرَ بإيماءة بطيئة وأشار لماكس بأن يجلس بجانبه.

- هل لي أن أحدِّثك بصراحة؟ - سأله ماكس.

- آمل أنّك تحدّثني بصراحة أساسًا أيّها الفتى. - ردَّ العجوز - تفضّل.

- لديّ انطباعٌ بأنّك في الأمس لم ترو لنا كلَّ ما تعرفه. ولا تسألني لماذا أفكّر هكذا. إنّها الفطرة. - قال ماكس.

ما زال وجه العجوز متماسكًا.

- وفيمَ تفكّر أيضًا يا ماكس؟ - سأل.

- أفكّر أنّ الدكتور قابيل هذا، أو أيًّا كان اسمه، سيُقِدم على شيءٍ مّا. قريبًا جدًّا. - تابع ماكس - وأفكّر أنّ كلّ الأشياء التي تحدث في هذه الأيّام إنّما هي إشاراتٌ لما هو آت.

- «لما هو آت...» - ردّد حارس المنارة - تعبيرٌ مثيرٌ للاهتمام يا ماكس.

- اسمعني يا سيّد كراي. - قاطعه ماكس - لقد رُعِبتُ حتّى الموت منذ قليل. وهناك أشياء كثيرة وغريبة تحدث منذ أيّام، وأنا واثقٌ أنّ عائلتي، وحضرتك، وورولاند وأنا نفسي في خطر. آخِرُ ما يمكنني احتماله الآن هو المزيد من الألغاز.

ضحك العجوز.

- هكذا تعجبني. مباشَرٌ ولاذع. - ضحك فيكتور كراي عن غير اقتناع - انظر يا ماكس، حين رويتُ لكم في الأمس حكاية الدكتور قابيل، لم تكن نيّتي إمتاعكم أو استحضار الأيّام الخوالي. إنّما فعلتُها لكي تعرفوا ما الذي يحدث وتتوخّوا الحذر.

أنت قلقٌ منذ أيّام؛ أمّا أنا فأعيش في هذه المنارة منذ خمسة وعشرين عامًا لغايةٍ وحيدة: أترصَّدُ ذلك الوحش. هذا هو هدفي الوحيد في الحياة. سأكون صريحًا معك أنا أيضًا يا ماكس. لن أرمي في البحر خمسة وعشرين عامًا من أجل ولدٍ وصل توًّا وقرَّرَ أن يلعب لعبة المحقِّق. ربّما ما كان ينبغي أن أخبركم بحرف. ربّما تحسن صنعًا إذا نسيتَ ما قلتُه لك وابتعدتَ عن تلك التماثيل وعن حفيدي.

حاول ماكس أن يعترض، لكنّ حارس المنارة رفع يده، وأشار له بألّا يفتح فمه.

- ما رويتُه لكم هو أكثر ممّا أنتم في حاجةٍ إلى معرفته. - شدَّد فيكتور كراي - لا تضغط على الأشياء يا ماكس. انسَ أمر جاكوب فليشمان واحرق تلك الأفلام اليوم فورًا. هذه أفضل نصيحة أقدِّمها إليك. والآن، أيّها الولد، اخرج من هنا.

*

نظر فيكتور كراي من الأعلى إلى ماكس وهو يبتعد بدرّاجته على الدرب النازل. كان قد وجَّهَ إليه كلامًا قاسيًا ومجحفًا، لكنّه في العمق اعتقد أنّه فعل أكثر الأشياء حكمةً. فالفتى ذكيّ ولا تنطلي عليه الحيل. ويعرف أنّ حارس المنارة يخفي أمرًا مّا، ومع ذلك لم يستطع فهم أبعاد السرّ برمّته. كانت الأحداث تتوالى، والخشية والقلق من عودة الدكتور قابيل، بعد خمسة عقود، كانت تتجلّى في غروب حياته، عندما بات يشعر أنّه ضعيفٌ ووحيدٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

حاول فيكتور كراي أن يمحو من ذهنه الذكرى الأليمة لحياةٍ كاملةٍ مرتبطةٍ بتلك الشخصيّة المشؤومة، من الضاحية القذرة التي عاش فيها طفولته إلى حَبْسِهِ في المنارة. وكان أمير الضباب قد انتزع منه صديقه المقرَّب أثناء الطفولة، والمرأة التي لم يحبَّ غيرها، وفي النهاية سرق منه كلَّ دقيقةٍ من أعوام نضجه المديد، ليحوِّله إلى ظلٍّ لنفسه ليس إلّا. وكان خلال الليالي التي لا تنجلي في المنارة قد اعتاد تخيُّلَ كيف لحياته أن تكون لو أنّ القدر لم يضع له ذلك الساحر الجبّار في طريقه. وكان آنذاك يعلم أنّ الذكريات التي سترافق سنواته الأخيرة ستكون مجرّد خيالاتٍ عن سيرةٍ لم يعشها على الإطلاق.

وكان أمله الوحيد معقودًا على رولاند، وعلى الوعد الراسخ الذي قطعه على نفسه بأن يمنح له مستقبلًا ينأى به عن ذلك الكابوس. لم يتبقَّ إلّا وقتٌ قصير ولم تعد قواه هي ذاتها التي أعانته في السنوات السابقة. فما إن مرّت خمسة وعشرون عامًا منذ يومين على الليلة التي غرقت فيها الأورفيوس على بُعد أمتار من هناك حتّى تأكَّدَ فيكتور كراي أنّ قابيل يزداد قوّةً في كلّ دقيقةٍ تمضي.

ذهب العجوز إلى النافذة وتأمَّلَ الطيف المشوَّش لهيكل الأورفيوس الغارق في مياه الخليج الزرقاء. ما زال هناك بضع ساَعاتٍ من الشمس قبل أن يخيّم الظلام وتهبط ما يمكن أن تكون ليلته الأخيرة في برج المراقبة في المنارة.

*

عندما دخل ماكس بيتَ الشاطئ، كانت بطاقة أليسيا ما تزال على الطاولة في صالة الغداء، ما يعني أنّ شقيقته لم تعد بعد وما زالت برفقة رولاند. اتّحدت العزلة المهيمنة على البيت في تلك اللحظة بالعزلة التي شعر بها في طوايا نفسه. وما انفكّ يلهج بكلمات العجوز. فعلى الرغم من أنّ الطريقة التي عامله بها جرحته، لم يراود ماكس أيُّ إحساسٍ بالعداء تجاهه. كان واثقًا من أنّه يخفي شيئًا؛ لكنّه كان واثقًا كذلك من أنّ لديه أسبابًا وجيهة تدفعه للتعامل معه بتلك الطريقة. صعد إلى غرفته واستلقى على السرير، يفكِّر أنّ تلك القضيّة أكبر منه بكثير: ومع أنّ أجزاء الأحجية واضحةٌ للغاية، لم يرَ أنّه قادرٌ على ترتيبها.

ربّما كان عليه أن يتَّبع نصائح فيكتور كراي وينسى كلَّ شيء، وإن لساعاتٍ قليلة فقط. نظر إلى الدُّرج ورأى أنّ الكتاب الذي يتناول كوبرنيكوس ما يزال هناك، بعد أيّامٍ من إهماله، كأنّه ترياقٌ عقلانيٌّ لكلّ الألغاز المحيطة به. فتح الكتاب من حيث انقطع عن قراءته وحاول أن يركِّز على البحوث التي تدرس مسار الكواكب في الكون. ربّما استطاع كوبرنيكوس أن يمدّه بالعون والعبقريّة لتفكيك عقدة ذلك اللغز. ولكنْ، مرّةً أخرى، بدا من البديهيّ أنّ كوبرنيكوس اختار الحقبة الخاطئة لتمضية إجازاته في العالم. ففي كونٍ لا ينتهي، ثمّة الكثير من الأشياء التي تفلت من الاستيعاب البشريّ.

الفصل الثالث عشر



بعد ساعات، عندما أنهى ماكس عشاءه وتبقَّت أمامه عشر صفحات فقط من الكتاب، تناهى إلى مسمعه صوت الدرّاجتين تدخلان الحديقة. وظلَّ ماكس حوالي الساعة يسمع غمغمة رولاند وأليسيا وهما يتهامسان عند المستراح. وحوالي منتصف الليل، أعاد الكتاب إلى الدُّرج وأطفأ المصباح. وفي النهاية، سمع صوت درّاجة رولاند تبتعد على امتداد طريق الشاطئ، وأليسيا تصعد السلالم ببطء. توقّفت خطواتها لحظةً أمام بابه. وبعد ثوانٍ قصيرة، تابعت بضعة أمتار إلى غرفتها. أحسَّ ماكس أنّ أخته تستلقي على السرير وتترك حذاءها يسقط على الأرضيّة الخشبيّة. استحضر صورة رولاند وهو يقبّلها في الصباح على الشاطئ وابتسم في الظلمة. كان واثقًا، لمرّةٍ واحدة، أنّ شقيقته ستستغرق وقتًا أطول منه لكي تغفو.

*

وفي الصباح التالي، قرّر أن ينهض قبل الشمس، حتّى إنّه في

الفجر كان يتدرّج نحو فرن البلدة، بغية شراء فطور لذيذ، ليمنع أليسيا من تحضير شيءٍ مّا (حليب وخبز، زبدة ومربّى). كانت البلدة في الفجر غارقة في هدوءٍ يذكِّره بصباحات أيّام الأحد في المدينة. ما عدا بعض المارّين الصامتين الذين يقطعون حالة سبات الشوارع، والبيوت أيضًا، التي بدت من مصاريع نوافذها المغلقة أنّها نائمة.

وفي البعيد، عند منفذ الميناء، كان قلّة من الصيّادين المحلّيّين يوجِّهون حيازيم قواربهم نحو عرض البحر الذي لن يعودوا منه قبل الغروب. حيّاه الخبّاز وابنته، وهي صبيّة بدينة زهريّة الخدّين أضخم من أليسيا ثلاثة أضعاف، وبينما كانا يقدِّمان له طبقًا شهيًّا من المعجّنات التي خرجت من الفرن توًّا، سألاه باهتمامٍ عن حال إيرينا. كانت الأخبار تطير، ويبدو أنّ طبيب البلدة خلال عياداته المنزليّة يفعل أشياء كثيرة إضافةً إلى تفحُّص حرارة المريض.

استطاع ماكس العودة إلى بيت الشاطئ محافظًا على سخونة الحلويات التي لا تقاوم. لم يكن يعرف كم الوقت من دون ساعته، مع أنّه تصوَّرَ أنّها الثامنة إلّا عشر دقائق. وإزاء ضيق توقُّعاته بأنّ أليسيا قد استيقظت لتتناول فطورها، قرّر اللجوء إلى حيلةٍ ماكرة. فحضَّرَ طبقًا بالمعجّنات والحليب والمناديل، وصعد إلي غرفتها، بحُجّة أنّ الفطور ساخن. دقّ على الباب ببراجم يده حتّى أجاب صوت شقيقته الناعس بغمغمة غير مفهومة.

- خدمة الغرف. - قال ماكس - هل أستطيع الدخول؟

دفع الباب ودخل الغرفة. كانت أليسيا قد غلَّت رأسها تحت

المخدّة. ألقى ماكس نظرة حوله، على الثياب المرميّة على الكراسي، ومعرض الأغراض الشخصيّة لأليسيا. لطالما كانت غرفة المرأة بالنسبة إليه لغزًا فاتنًا.

- سأعُدُّ حتّى خمسة. - قال ماكس - ثمّ أباشر الطعام.

أطلَّ وجه أخته من تحت المخدّة، كانت تتنشَّق عطر الزبدة الفائح في الهواء.

*

كان رولاند بانتظارهما على شاطئ الخليج، مرتديًا بنطلونًا قديمًا قصَّرَهُ ليغدو بديلًا عن سروال السباحة. وكان بجانبه قاربٌ خشبيٌّ صغير، لا يزيد على ثلاثة أمتار طولًا. وبدا أنّه أمضى ثلاثين عامًا تحت الشمس راسيًا عند شاطئٍ مّا، فاكتسب الخشب لونًا رماديًّا تحاول بقعُ الدهان الزرقاء والقليلة المتبقّية أن تخفيه بمشقّة. وعلى الرغم من هذا كلّه، بدا أنّ رولاند معجبٌ بقاربه كما لو أنّه يختٌ فارِه. وبينما كان الشقيقان يتجنّبان صخور الشاطئ متّجهين نحو الشطّ، لاحظ ماكس أنّ رولاند كتب على جانب القارب اسم، *أورفيوس ٢*، بطلاء طازج، من المحتمل أنّه فعلها في الصباح نفسه.

- منذ متى لديك قارب؟ - سألته أليسيا، وهي تشير إلى المركب المهترئ الذي حمَّلَهُ رولاند عُدّة الغوص وسلّتين محتواهما غامض.

- منذ ثلاث ساعات. أوشك أحد الصيّادين أن يحطّمه ليصنع منه حطبًا، لكنّي أقنعتُه فأهداه لي مقابل معروف. - فسَّرَ رولاند.

- معروف؟ - سأله ماكس - أظنّ أنّك أنت الذي أسديتَ إليه المعروف.

- بإمكانك البقاء على اليابسة إن أردت. - ردَّ رولاند بنبرةٍ ممازحة - هيّا، فليصعد الجميع إلى المتن.

كان تعبير «متن» مبالغٌ فيه بعض الشيء نظرًا إلى تلك *السفينة*، ولكنْ بعد أن قطعوا خمسة عشر مترًا، لاحظ ماكس أنّ تنبؤاته بالغرق الفوريّ لم تتحقّق. وفي الواقع كان القارب يبحر واثقًا على ضربات المجداف الذي يحرّكه رولاند بقوّة.

- أتيتكما بابتكارٍ صغير سيدهشكما. - قال رولاند.

نظر ماكس إلى إحدى السلّتينِ المغلقتين ورفع غطاءها سنتمترًا واحدًا.

- ما هذا؟ - غمغم.

- نافذة القاع. - أوضح رولاند - في الحقيقة هي علبة بجانبٍ زجاجيّ في الأساس. إذا أسندتها إلى سطح الماء، بإمكانك رؤية الأعماق من دون أن تغطس. إنّها مثل النافذة.

التفت ماكس إلى شقيقته.

- بإمكانكِ هكذا أن تري شيئًا مّا. - ألمح بنبرةٍ ساخرة.

- ومن قال لك إنّي أريد البقاء هنا؟ اليوم دوري في الغوص. - ردّت أليسيا.

- أنتِ؟ ولكنّكِ لا تجيدين الغوص... - هتف ماكس، محاولًا استفزازها.

- إن كنتَ تسمِّي ما فعلتَه أنت قبل يومين بالغوص، فأنا لا أجيده حتمًا. - مزحت أليسيا، دون أن تتخلّى عن فأس الحرب.

وما فتئ رولاند يجذف من دون أن يضيف أيّ ترّهة إلى النقاش الدائر بين الشقيقين، حتّى أوقف القارب على بعد أربعين مترًا عن الشاطئ. كان ظلّ هيكل الأورفيوس القاتم تحتهما، راقدًا في القاع مثل سمك قرش ضخم وممدّد على الرمل، مترقّبًا.

فتح رولاند السلّة الأخرى وأخرج منها مرساة صدئة مربوطة بحبلٍ غليظ ومهترئ بشكلٍ واضح. حين رأى ماكس تلك الأداة، تصوَّرَ أنَّ كلّ هذه العدّة البحريّة تشكِّل جزءًا من اليانصيب الذي ساوم عليه رولاند لإنقاذ القارب البائس الذي تليق به نهايةٌ تناسب وضعه.

- حذار من الرذاذ! - هتف رولاند وهو يرمي في البحر مرساته التي هوت عموديًّا ونجم عنها غيمة صغيرة من الفقاعات، ساحبةً معها قرابة الخمسة عشر متراً من الحبل.

سمح رولاند للتيّار أن يُسيِّرَ القاربَ مترين تقريبًا ثمّ ربط حبل المرساة بخاتمٍ يتدلّى من الحيزوم. تمايل القارب برفقٍ مع الريح، وتصلَّبَ الحبلُ فصار هيكل القارب يطقطق. فألقى ماكس نظرةً متوجّسة على التوصيلات.

- لن يغرق يا ماكس. ثق بي. - أكّد رولاند، وأخرج نافذة القاع من السلّة ووضعها على سطح الماء.

- هذا ما قاله قبطان *التايتانك* قبل أن يسلِّم الروح. - ردَّ ماكس.

انحنت أليسيا لتنظر من خلال العلبة فرأت للمرّة الأولى هيكل الأورفيوس راقدًا في القاع.

- عجيب! - هتفت إزاء ذلك المنظر المغمور.

ابتسم رولاند مسرورًا، وأعطاها نظارة وزعانف.

- انتظري لرؤيته عن كثب. - قال وهو يرتدي العدّة.

كانت أليسيا أوَّل مَن غطس في الماء. وجَّهَ رولاند الجالس على الحافّة نظرةً مطمئنة لماكس.

- لا تقلق. سأراقبها. لن يحدث لها شيء.

ثمّ غطس في الماء وبلغ أليسيا التي كانت تنتظر على بُعد ثلاثة أمتار عن القارب. سلَّمَ كلاهما على ماكس، ثمّ اختفيا تحت سطح الماء.

*

أمسك رولاند تحت الماء بيد أليسيا واقتادها إلى ما فوق حطام الأورفيوس. كانت درجة الحرارة قد انخفضت بعض الشيء قياسًا بالمرّة الأخيرة، وصار البرد ملموسًا في الأعماق الموغلة. وكان رولاند معتادًا تلك الظاهرة، التي تتحقّق في الأيّام الأولى من الصيف، لاسيّما إذا جرت التيّارات الباردة الآتية من عرض المحيط بشدّة تحت عُمق ستّة أو سبعة أمتار. ونظرًا إلى هذا الوضع، قرّرَ رولاند تلقائيًّا أنّ ماكس وأليسيا في ذلك اليوم لن يستطيعا الغوص معه حتّى هيكل السفينة؛ خصوصًا أنّ الصيف لن يبخل بفرص أخرى.

سبح رولاند وأليسيا فوق السفينة المغمورة. وكانا يتوقّفان بين

الفينة والفينة ليصعدا إلى السطح لاستنشاق الهواء والتأمُّل برويّةٍ إلى الهيكل الرازح تحت الضوء الطيفيّ الذي يلامس قعر البحر. أحسَّ رولاند أنَّ الإثارة تطغى على أليسيا حيال ذلك المشهد ولم يحد ببصره عنها. كان يعلم أنّه إذا أراد التمتُّع بغوصٍ مطمئنٍّ فعليه أن يفعلها بمفرده.

فعندما يغطس مع أحدهم، لاسيّما إذا كان مبتدئًا كصديقيه الجديدين، لا يسعه تجنُّب أداء دور الحاضنة تحت الماء. وعلى الرغم من هذا، كان يحبّ أن يتشارك مع أليسيا وأخيها ذلك العالم السحريّ الذي ظلّ له وحده طوال أعوام. كان يشعر أنّه مرشدٌ في متحفٍ مسحور يرافق الزوّار في جولةٍ فاتنة داخل كاتدرائيّةٍ غارقة.

إلّا أنّ ذلك المشهد يعرض بدائل أخرى. فكان يحبّ أن ينظر إلى جسم أليسيا وهو يتحرّك تحت الماء. فكلّما جدّفت بذراعيها تراءى له اشتداد عضلات الصدر والساقين فيما يكتسب الجلد نصاعة ضاربة إلى الزرقة. وفي الواقع، كان يشعر أنّه في أحسن حال عندما يراقبها من دون أن تحسّ بنظرته الفائرة. صعدا إلى السطح ثانيةً لالتقاط الأنفاس فرأيا القارب وشخص ماكس المتحجّر على بعد حوالي العشرين مترًا. ابتسمت أليسيا لرولاند بابتهاج. فبادلها الابتسامة، لكنّه فكَّرَ في سرّه أنّه من الأفضل العودة إلى القارب.

- هل يمكننا الهبوط إلى السفينة ودخولها؟ - سألته أليسيا بأنفاسٍ مقطوعة.

لاحظ رولاند القشعريرة على جلد الفتاة عند ذراعيها وساقيها.

- ليس اليوم. - أجاب - فلنعد إلى القارب.

امَّحت الابتسامة عن وجه أليسيا، إذ أحسَّت بظلال القلق تخيِّم على وجهه.

- هل حصل شيء يا رولاند؟

ابتسم رولاند بطمأنينة ونفى برأسه. لم يكن يروقه في تلك اللحظة أن يتحدّث عن التيّارات المائيّة التي تنخفض درجة حرارتها إلى ما دون الخمسة. وحينذاك، وبينما كانت أليسيا تهمّ بتجديف ذراعيها نحو القارب، أحسَّ رولاند بغصّةٍ في الفؤاد. هنالك طيفٌ قاتمٌ يتحرّك في قاع الخليج، تحت أقدامهما. التفتت الفتاة لتنظر إلى رولاند فأومأ لها بالمتابعة بلا توقُّف وغطس برأسه ليتحرّى تحت الماء.

شبحٌ أسود، أشبَه بسمكة كبيرة، يسبح بطريقةٍ ملتوية في مدار هيكل الأورفيوس. ظنَّ رولاند لوهلة أنّها سمكة قرش، لكنَّه بالنظرة الثانية أدرك أنّه خاطئ. تابع السباحة خلف أليسيا دون أن يحيد بنظره عن ذلك الشكل الغريب الذي بدا أنّه يلاحقهما. كان الشبح يسبح بطريقة أفعوانيّة حول ظلّ السفينة، متقصِّدًا الوقوع تحِت الضوء مُباشرة. لم يميّز رولاند منه سوى كونه جسمًا مطاولًا، يشبه ثعبانًا ضخمًا، يحوطه نورٌ وامضٌ غريب مثل عباءة من انعكاسات شاحبة. نظر نحو القارب فرأى أنّ عشرة أمتار تفصله عنه. وبدا أنّ الطيف تحت أقدامهما يغيّر وجهته. تحرّى

رولاند في القاع فلاحظ أنّ ذلك الشكل كان يخرج إلى الضوء، ويصعد ببطء نحوهما.

توسَّلَ ألّا تكون أليسيا قد رأته، فأمسك بذراعها وراح يسبح بكلّ قواه. توجَّست أليسيا ونظرت إليه ولم تفهم.

- اسبحي نحو القارب! بسرعة! - هتف رولاند.

لم تكن أليسيا قد استوعبت ما يحدث، لكنّ وجه رولاند تجهَّمَ بفزعٍ رهيب لا يسمح لها بالتفكير والمناقشة ففعلت ما أُمِرَت به. ثمّ إنّ صرخة رولاند أنذرت ماكس، فنظر إلى صديقه وشقيقته يسبحان باتّجاهه بلا أمل. وبعد ثانيةٍ رأى الظلَّ القاتم يصعد تحت الماء.

- يا إلهي! - غمغم مذعورًا.

ما انفكّ رولاند يدفع أليسيا حتّى لمست هيكل القارب. وسارع ماكس إلى انتشال أخته من إبطيها ورفعها إلى الأعلى. ضربت أليسيا بزعانفها بقوّة إلى أن وقعت فوق ماكس في داخل القارب. تنفَّسَ رولاند الصعداء وتهيّأ ليفعل مثلها. مدَّ ماكس يده نحوه، لكنّ رولاند استطاع أن يلمح على وجه صديقه هولَ ما كان خلفه. أحسَّ بيده تنزلق من ساعد ماكس، وتأكَّدَ من أنّه لن يخرج من الماء حيًّا. أمسكت برودةٌ قصوى بساقيه، وجرَّته نحو الأعماق بقوّةٍ لا يمكن ردعها.

*

بعد أن تجاوز رولاند ثواني الهلع الأولى، فتح عينيه ونظر مليًّا إلى الشيء الذي جذبه معه نحو ظلمات القاع. ظنّ لوهلة أنّه

كان عرضة للهلوسة. لم يكن يرى شكلًا متماسكًا، إنّما طيفٌ غريب مصنوع ممّا بدا أنّه سائلٌ مركَّزٌ بكثافة عالية. نظر رولاند إلى تلك المنحوتة الهذيانيّة المتحرّكة كالماء تغيِّرُ شكلها باستمرار وحاول أن يتخلّص من عناقها المميت.

تلوَّى المخلوق المائيّ والتفت بوجهٍ شبحيٍّ كان قد ظهر للفتى في أحلامه من قبل: وجه المهرّج. فتح المهرّج شدقيه الكبيرين والممتلئين بأنيابٍ كلبيّة طويلة ومشحوذة مثل ساطور اللحّام، وأصبحت عيناه ضخمتين كأطباق فناجين الشاي. شعر رولاند أنّ أنفاسه تنقطع. كان ذلك المخلوق، أيًّا هو، باستطاعته تكوين شكله بحسب ما يريد، ونيّته واضحة: سيأخذه إلى داخل السفينة الغارقة. وبينما تساءل رولاند كم كان سيقدر على حبس أنفاسه قبل أن يستسلم ويبتلع الماء، لاحظ أنّ الضوء ما حوله يتناقص أكثر فأكثر. كان قد صار في باطن سفينة أورفيوس حيث الظلام الدامس.

*

ابتلع ماكس ريقه وهو يضع النظارة على وجهه ويتجهَّز للغطس في الماء ليبحث عن صديقه. كان مدركًا أنّ محاولة إنقاذه عبثيّة. لاسيّما أنّه يغوص بمشقّةٍ بالغة، وحتّى لو أجاد ذلك لم يكن يودّ أن يتخيّل ما الذي سيحدث لو أنّ الشكل المائيّ السائل الذي قبض على رولاند كان سيطارده هو الآخر ما إن ينزل تحت الماء. وبالمقابل لا يمكن له أن يبقى مكتوف اليدين، جالسًا بسلام في القارب ليترك صديقه يموت. وبينما كان ينتعل الزعانف

اقترح عليه ذهنه ألف تفسير معقول لما حدث توًّا. تعرَّضَ رولاند لتشنُّجٍ عضليّ؛ أو أنّه أصيب بنوبة إثر تبدُّلٍ في درجة حرارة الماء... مهما كان الافتراض سيظلّ أفضل من التسليم بحقيقة ما رآه يجذب رولاند إلى الأعماق.

تبادل نظرة مع أليسيا قبل أن يغطس. كان وجه أخته يفضح صراعها ما بين العزم على إنقاذ رولاند والخشية من أن يُكتَب المصير ذاته لشقيقها. وقبل أن يثني صوتُ العقل كليهما، فقز ماكس وغطس في مياه الخليج الزجاجيّة. كان هيكل الأورفيوس يتمدّد تحت قدميه إلى حيث تتشوّش الرؤية. زعنف نحو حيزوم السفينة، حيث كان قد رأى جسد رولاند يختفي. وظنّ أنّه يلمح أضواء وامضة، من خلال صدوع الهيكل المغمور، تبدو كأنّها تؤدّي إلى واحةٍ واهنةٍ من الضياء النابع من فجوةٍ شرخت قعر السفينة بسبب الصخور قبل خمسة وعشرين عامًا. اتّجه ماكس نحو تلك الفتحة. بدا كأنّ أحدًا مّا أشعل مئة شمعة في داخل الأورفيوس.

وعندما وجد نفسه عموديًّا فوق مدخل السفينة، صعد إلى السطح لاستنشاق الهواء وغاص من جديد بلا توقُّف حتّى بلغ الهيكل. وكان نزول هذه الأمتار العشرة أصعب ممّا تصوَّر. ففي منتصف الطريق بدأ يشعر بضغطٍ مؤلم في أذنيه فخشي أن تنفجر طبلة أذنه تحت الماء. وحينما وصل إلى التيّار البارد، اشتدّت كلُّ عضلات جسمه كأنّها أسلاكٌ فولاذيّة فاضطرّ إلى الضرب بالزعانف بكلّ إصرار لئلا يجرفه التيّار كورقةٍ يابسة. تشبَّثَ ماكس

بأطراف السفينة وبذل جهدًا ليهدأ. كانت رئتاه تحرقانه وكان يعلم أنّه على بعد خطوة من الهلع. نظر باتّجاه السطح ورأى أسفل القارب الصغير، بعيدًا جدًّا. فأدرك أنّه لن يجني شيئًا من الهبوط حتّى هناك ما لم يتصرّف بسرعة.

وكان الضياء يبدو متأتّيًا من داخل العنبر، فاتَّبع ماكس ذلك الخطّ الذي يكشف عن المنظر الشبحيّ لتلك السفينة الغارقة، ويجعلها تبدو مثل سردابٍ مائيٍّ كئيب. قطع ممرًّا حيث الأقمشة الممزّقة والمهترئة تتمايل معلَّقةً مثل قناديل البحر. وفي نهاية الممرّ لمح بابًا مواربًا، كأنّه يخفي خلفه منبع ذلك الضياء. تجاهل اللمسات المشمئزّة لتلك الخِرَق على جلده، أمسك بمقبض الباب وشدَّهُ بكلّ ما أوتي من قوّة.

كان الباب يفضي إلى أحد المستودعات الرئيسة في العنبر. وكان رولاند في وسطه يصارع للإفلات من عناق ذلك المخلوق المائيّ الذي اتّخذ حينها شكل المهرِّج في حديقة التماثيل. أمّا الضوء الذي رآه ماكس فكان ينبع من عينيه القاسيتين والكبيرتين بشكلٍ لا يتناسق مع ذلك الوجه. اندفع ماكس إلى داخل العنبر فرفع المخلوق نظره وحدَّقَ إليه. شعر ماكس بدافعٍ غريزيٍّ للفرار بأقصى سرعة، لكنّ رؤيته صديقه أسيرًا أرغمته على مجابهة تلك النظرة المشحونة بالغضب والجنون. غيَّرَ المخلوق وجهه فعرف فيه ماكس الملاك الصخريّ الذي رآه في المقبرة المحلّيّة.

توقَّفَ جسد رولاند عن الالتواء وصار بلا حراك. تركه المخلوق، فسبح ماكس تجاه صديقه من دون انتظار أيّ ردّة فعل.

أمسكه من ذراعه، وكان قد فقد وعيه. فإن لم يحمله إلى السطح في خلال ثوانٍ، لفارق الحياة. جرَّهُ ماكس نحو الباب. وفي تلك اللحظة انقضّ عليه المخلوق ذو الشكل الملاك والوجه المهرّج والأنياب الكلبيّة الطويلة، وبسط براثنه الحادّة. سدَّد ماكس قبضته فاخترقت وجه المخلوق. إنّه مجرّد ماء، باردٌ بحيث إنَّ ملامسته للجلد وحدَها تولِّد ألمًا حارقًا. كان الدكتور قابيل، مرّةً أخرى، يُظهِر حيله التي لا تنتهي.

أنزل ماكس ذراعه فتلاشت الرؤية، ومعها الضوء أيضًا. سحب صديقَه على امتداد ممرّ العنبر حتّى آخِر الهيكل، مستهلكًا ما تبقّى لديه من أنفاس. وعندما وصلا، كادت رئتاه تنفجران. فعجز عن حبس أنفاسه مزيدًا من الوقت، وزفر كلَّ الهواء المتراكم. أمسك بجسد رولاند الهامد وزعنف نحو السطح، وما لبث يفكِّر أنّه سيفقد وعيه بين لحظة وأخرى بسبب انعدام الهواء.

بدا له الاحتضار في تلك الأمتار العشرة الأخيرة أبديًّا. خرج إلى السطح في النهاية كمن يولد من جديد. ألقت أليسيا بنفسها في الماء وسبحت نحوهما. استنشق ماكس بعمق مرارًا، وهو يكافح ضدّ الألم العسير الذي يجتاح صدره. ولم يكن من السهل رفع رولاند إلى القارب، ولاحظ ماكس أنّ أليسيا وهي تنهض بثقل الجسد كلّه كانت تخدِّش جلد ذراعها بأخشاب القارب المتشظّية.

وعندما استطاعا رفعه إلى المتن، ألقياه على بطنه وضغطا على ظهره أكثر من مرّة، لإرغام الرئتين على طرح الماء. تصبَّبت أليسيا عرقًا، وذراعاها نازفتان، أمسكت بذراعي رولاند وحاولت

أن تجبره على التنفُّس. وفي النهاية استنشقت بعمق، وسدَّت أنف الفتى، وزفرت كلَّ الهواء في فمه بقوّة. أعادت العمليّة خمس مرّات إلى أن تفاعل جسد رولاند، بشهقةٍ عنيفة، وبدأ يبصق ماء البحر خارجًا ويرتجف، في حين كان ماكس يحاول إبقاءه واقفًا.

فتح رولاند عينيه أخيرًا واستعاد جلده المصفرّ لونه الحقيقيّ شيئًا فشيئًا. ساعده ماكس على النهوض واستئناف التنفّس الطبيعيّ تدريجيًّا.

- إنّي بخير. - غمغم رولاند، رافعًا يده في محاولة لطمأنة صديقيه.

أسقطت أليسيا ذراعيها وانفجرت باكيةً مثلما لم يرها ماكس من قبل. انتظر دقيقتين حتّى استطاع رولاند أن يعتمد على نفسه، ثمّ أمسك المجدافين وانطلق نحو الشاطئ. كان رولاند ينظر إليه في صمت. لقد أنقذ حياته. علم ماكس أنّ تلك النظرة اليائسة والمفعمة بالامتنان سترافقه إلى الأبد.

*

مدَّدَ الشقيقان رولاند برفق على الفراش في كوخ الشاطئ ووضعا عليه الأغطية. لم يكن لأحدٍ منهم رغبة في التكلُّم عمّا حدث، حتّى اللحظة على الأقلّ. كانت هي المرّة الأولى التي تغدو فيها تهديدات أمير الضباب ملموسةً بشكلٍ مؤلم، ومن الصعب العثور على كلماتٍ تعبِّر عن القلق الذي يعتريهم في تلك اللحظات. كان صوت العقل يبدو أنّه يشير إلى الانغماس في الأولويّات، وهكذا فعلوا. استغلّ ماكس وجود صيدليّة صغيرة في

كوخ رولاند فعقَّمَ جروح أليسيا. وغفا رولاند بعد بضع دقائق. كانت أليسيا ترنو إلى وجهه المنهك.

- سيتعافى. إنّه مرهق ليس إلّا. - قال ماكس.

نظرت أليسيا إلى شقيقها.

- وأنت؟ لقد أنقذتَ حياته. - قالت أليسيا التي كان صوتها يفضح أعصابها المشدودة - لم يكن لأحدٍ القدرة على فعل ما فعلتَه يا ماكس.

- كان سيفعلها هو من أجلي. - قال ماكس الذي آثَرَ تجنُّب الموضوع.

- كيف حالك؟ - ألحَّت أخته.

- أتريدين الحقيقة؟ - سألها.

أومأت أليسيا.

- أشعر أنّني على وشك التقيّؤ. - ابتسم ماكس - مررتُ بلحظاتٍ أسوأ في حياتي.

عانقت أليسيا أخاها بشدّة. فظلَّ ثابتًا، بتلك الأذرع المتشابكة، دون أن يعرف ما إذا كانت أخته تقصد التعبير عن مودّةٍ أخويّة عارمة أم عن الفزع الذي راودها قبل دقائق عندما حاولا إنعاش رولاند.

- إنّي أعزّك يا ماكس. - همست له أليسيا - هل سمعتني؟

ظلَّ صامتًا، مرتبكًا. حرّرته أليسيا من عناقها واستدارت نحو باب الكوخ، مولية ظهرها إليه. فأدرك ماكس أنّ أخته تبكي.

- لا تنسَ ذلك أبدًا يا أخي العزيز. - غمغمت - والآن نم قليلًا. سأحاول أنا كذلك.

- إن غفوتُ الآن لن أنهض أبدًا. - تنهَّدَ ماكس.

وما هي إلّا خمس دقائق حتّى بات الأصدقاء الثلاثة يغطّون في النوم داخل كوخ الشاطئ ولم يكن لشيءٍ في العالم القدرة على إيقاظهم.

الفصل الرابع عشر



عند هبوط المساء، توقَّفَ فيكتور كراي على بُعد مئة متر عن بيت الشاطئ حيث يقيم آل كارڤر. هو البيت نفسه الذي أنجبت فيه المرأة الوحيدة التي أحبَّها، إيڤا غري، ابنها جاكوب فليشمان. فلا بدّ أنّ العودة إلى رؤية واجهة الفيلا البيضاء تنكأ فيه جراحًا ظنَّ أنّها اندملت إلى الأبد. كانت الأضواء مطفأة والبيت خاوٍ. تصوَّرَ فيكتور كراي أنّ الشقيقين ما زالا صحبة رولاند في البلدة.

مشى حارسُ المنارةِ الأمتارَ التي تفصله عن البيت واجتاز السياج الأبيض المحيط به. كان الباب نفسه والنوافذ نفسها التي يذكرها بالتمام تتلألأ تحت شعاع الشمس الأخير. قطع الحديقة حتّى الفِناء الخلفيّ فوجد نفسه في الحقل الممتدّ ما وراء بيت الشاطئ. وكانت الغابة تنهض في البعيد، وحديقة التماثيل عند أعتابها. لم يزرها منذ زمن طويل، فتوقَّفَ ليتأمّلها وهو يخشى ما قد يكون مترصِّدًا خلف تلك الأسوار. هنالك ضبابٌ كثيف ينتشر في اتّجاه البيت عبْر قضبان البوّابة القاتمة.

كان فيكتور كراي مذعورًا ويشعر أنّه عجوز. هو الخوف ذاته الذي اجتاحه قبل عقود في أزقّة تلك الضاحية العمّاليّة، حيث سمع للمرّة الأولى صوت أمير الضباب. وآنذاك، في مغيب حياته، بدا أنّ تلك الدائرة تنغلق، وأنّ الأوراق تتناقص في يد العجوز في كلّ جولة.

تقدَّمَ بخطى حاسمة إلى مدخل حديقة التماثيل. وسرعان ما غمره الضباب المتسرّب من الداخل حتّى خصره. غلَّ فيكتور كراي يده المرتجفة في جيبه واستلَّ مشعله الباهر ومسدَّسه القديم، الذي كان قد لقَّمَهُ بعناية قبل أن يخرج. أحكم السلاح في قبضته ودخل، أضاء المشعل فأنار داخل الحديقة. كشفت حزمة الضوء عن منظر غير اعتياديّ. أخفض فيكتور كراي سلاحه وفرك عينيه، ظنًّا أنّه عرضةٌ للإيهام. ثمّة شيء ليس على ما يرام، أو على الأقلّ لم يكن ذاك الذي توقَّعَ أن يجده. مزَّقَ الضبابَ بضوئه من جديد. لم يكن إيهامًا: حديقة التماثيل فارغة.

اقترب العجوز مشتَّتَ الذهن ليتحرّى في المنصّات الخاوية والمهجورة. وبينما كان يحاول ترتيب أفكاره، سمع همهمة بعيدة لعاصفة أخرى تقترب فرفع نظره نحو الأفق: هناك رداءٌ متوعِّدٌ من سُحبٍ متجهّمة وإعصاريّة يتمدّد في السماء مثل بقعة حِبر في مستنقع. مُزِّقَت السماء نصفين جرّاء صاعقة وتناهت أصداء الرعد من جهة الساحل كقرع الطبول التي تنذر بالحرب. أصغى فيكتور كراي إلى نواح العاصفة التي تتجهّز في عرض المحيط، وفي النهاية تذكَّرَ أنّه حضر المشهد نفسه على متن

الأورفيوس خمسة وعشرين عامًا خلت، فأدرك ما الذي يوشك على الوقوع.

*

استيقظ ماكس وهو يتصبّب عرقًا واستغرق بضع ثوانٍ ليستوعب أين كان. شعر بقلبه يخفق مثل محرّك درّاجة ناريّة قديمة. عرف وجهًا مألوفًا على بُعد أمتار قليلة: أليسيا، نائمة بجانب رولاند؛ فتذكَّرَ أنّه في كوخ الشاطئ. كان سيقُسِم أنّ نومه لن يدوم أكثر من دقائق، مع أنّه نام قرابة الساعة في الحقيقة. نهض بحذر وخرج بحثًا عن هواء منعش، بينما كان ذهنه يتخلّص من صور كابوس مقلق وخانق رأى فيه أنّه ورولاند ما يزالان أسيرين في سفينة الأورفيوس.

كان الشاطئ مقفرًا، وقد حمل الجَزْرُ قاربَ رولاند معه إلى عرض البحر؛ وكان التيّار سيجرف القارب الصغير قريبًا ليضيع في المحيط الوسيع بلا أملٍ باسترجاعه. اقترب ماكس من الشطّ، وبلَّلَ وجهه وكتفيه بمياه البحر الباردة. ثمّ اتّجه نحو المنعرج الذي يشكِّل مرسىً صغيرًا وجلس ما بين الصخور، قدماه مغمورتان بالماء، مؤملًا أن يستعيد السكينة التي عجز النوم عن تزويده بها.

فطن ماكس أنَّ ما وراء أحداث الأيّام الأخيرة منطقًا معيّنًا. وكان إحساسه بخطرٍ وشيك يتبلور في الهواء، وإن فكَّرَ في الأمر مليًّا تمكَّنَ من اقتفاء خطّ صاعدٍ في تجلّيات الدكتور قابيل. إذ كان حضوره، في كلّ ساعة، يكتسب سطوةً أكبر. وكان الكلُّ في رأي ماكس يشكِّل جزءًا من آليّةٍ معقّدة تتجمّع أدواتها شيئًا فشيئًا

ويتمحور حول الماضي الغامض لجاكوب فليشمان؛ من زياراته الملغزة إلى حديقة التماثيل التي شاهدها في أفلام المرأب وإلى المخلوق الذي لا يوصف الذي أوشك على قتلهما في تلك الظهيرة.

أدرك ماكس أنّهم إذا أخذوا بالحسبان ما وقع في ذلك اليوم، فلا يجدر بهم أن يترفّهوا بانتظار لقاء جديد مع الدكتور قابيل: ينبغي استباق تحرُّكاته والتنبّؤ بنقلته القادمة. فبالنسبة إلى ماكس، لا وسيلة لاكتشاف ذلك إلّا التالية: اقتفاء الأثر الذي خلَّفه جاكوب فليشمان قبل سنوات في أفلامه.

ومن دون أن يزعج أليسيا ورولاند بإيقاظهما، ركب درّاجته واتّجه إلى بيت الشاطئ. وفي البعيد، على خطّ الأفق، تبدَّت نقطةٌ قاتمةٌ من العدم وأخذت تنبسط مثل غيمةٍ من غازٍ فتّاك. كانت العاصفة تتهيّأ.

*

وما إن وصل إلى البيت، أدخل ماكس الشريط في بكرة العارض. كان الطقس، في أثناء رحلته على الدرّاجة، قد انخفضت حرارته بشكلٍ ملموس وما انفكّت تنخفض. وكانت رشقات الريح تضرب النوافذ، وأصداء العاصفة تدوّي. هرع ماكس إلى الأعلى، قبل تشغيل الفيلم، وارتدى ثيابًا ناشفة وثقيلة. وكان البنيان الخشبيّ للبيت يطقطق تحت قدميه، ويبدو أنّه آيلٌ للسقوط على إثر هجمات الريح. وبينما كان يغيّر ملابسه، لاحظ من نافذة غرفته أنّ العاصفة الوشيكة تغطّي السماء بعباءةٍ من ظلامٍ

يستبق الليل بساعتين. أغلق النافذة جيّدًا ونزل إلى الصالة مجدّدًا ليشغّل العارض.

مرّةً أخرى، استعادت الصور الحياة على الجدار وركّزَ ماكس على العرض. كانت العدسة هذه المرّة تطوف في مشهدٍ مألوف: ممرّات بيت الشاطئ. عرف ماكس الصالة بأكملها التي كان فيها حينذاك. كان الأثاث والتصميم مختلفًا، والبيت يوحي بمظهرٍ فاخرٍ وباذخٍ على أعين الكاميرا التي تنتقل بين حلقات بطيئة وتستعرض جدرانًا ونوافذ، كما لو أنّ بابًا في فخّ الزمن قد انفتح ليسمح بزيارة البيت كما كان عليه قبل عشرة أعوام تقريبًا.

وبعد دقيقتين في الطابق الأرضيّ، كان الفيلم ينتقل بالمشاهد إلى الطابق الأعلى. وكانت العدسة، من عتبة الممرّ، تقترب من الباب في العمق، الذي يفضي إلى الغرفة التي تشغلها إيرينا حتّى يوم الحادث. انفتح الباب وولجت العدسة إلى الغرفة الغارقة في الظلام. كانت فارغة، والعدسة تتوقّف قبالة المرآة.

مرّت عدّة ثوانٍ من الفيلم لم يقع فيها شيء ومن دون أن تسجّل الكاميرا أيّ حركة في الغرفة الخاوية. وفجأةً، ينفتح مصراع الخزانة بعنف ويصفق الجدار، ويترنّح على مفاصله. حدَّدَ ماكس بصره ليفهم ما الذي كان في داخل الخزانة المظلمة، فرأى يدًا مغلولةً في قفّازٍ أبيض تظهر من الظلّ، وهي تحمل غرضًا لامعًا يتدلّى من سلسلة. فتكهَّنَ بالقادم: الدكتور قابيل يخرج من الخزانة ويبتسم للعدسة.

عرف ماكس الكرة التي يحملها أمير الضباب بين يديه: هي

ساعته التي أهداها له والده وكان قد أضاعها في داخل ضريح جاكوب فليشمان. وها هي الآن في قبضة الساحر، الذي استولى بطريقة أو بأخرى على أكثر أشيائه تقديرًا بأبعادها الطيفيّة في الصور البيضاء والسوداء المتدفّقة من العارض القديم.

اقتربت الكاميرا من الساعة ورأى ماكس بكلّ نقاءٍ عقاربها وهي تدور بالمقلوب وبسرعةٍ خياليّة ومتصاعدة حتّى بات من المستحيل تمييزها. وبعد قليل، انبعث الدخان واللهب من الكرة إلى أن اشتعلت الساعة. تأمَّلَ ماكس المشهد مخطوف الذهن، عاجزًا عن إشاحة بصره عن الساعة التي تحترق. ثمّ راحت العدسة تنتقل بعنفٍ نحو حائط الغرفة لتتسلَّطَ على منضدة زينة قديمة تعتليها مرآة. اقتربت الكاميرا منها وتوقّفت لتتكشَّفَ هويّةُ مَن يحملها على تلك الصفيحة البلّوريّة بكلّ وضوح.

ابتلع ماكس ريقه؛ ها هو وجهًا لوجهٍ أخيرًا مع مَن صوَّرَ تلك الأفلام قبل أعوام، في ذلك البيت نفسه. توصَّلَ إلى معرفة ذلك الوجه الصبيانيّ والمبتسم الذي كان يصوِّر نفسه. كان أصغر سنًّا، لكنّ ملامحه ونظراته هي نفسها التي اعتاد ماكس رؤيتها في الآونة الأخيرة: رولاند.

جنح الشريط في داخل العارض، وبدأت اللقطة العالقة أمام العدسة تذوب ببطء على الشاشة. أطفأ ماكس الجهاز وضغط قبَضتيه لكي يوقف الرجفة التي استبدّت بيديه. جاكوب فليشمان ورولاند هما الشخص نفسه.

أضيئت الغرفة المعتمة بوهج البرق لجزء من الثانية فلاحظ

ماكس أنّ خلف النافذة طيفًا يطرق ببراجمه على الزجاج، ويشير برغبته في الدخول. أنار ماكس الضوء وعرف ذلك الوجه الجثثيّ والمذعور: فيكتور كراي. كان مظهره يوحي بأنّه رأى رؤيا. اتّجه ماكس نحو الباب وأدخل العجوز. فبينهما أشياء كثيرة ينبغي الحديث فيها.

الفصل الخامس عشر



قدَّمَ ماكس فنجانًا من الشاي الساخن لحارس المنارة لكي يدفأ. كان فيكتور كراي يرتجف ولم يتأكّد ماكس ما إذا كانت حالة الرجل منسوبةً إلى الريح الباردة التي حملتها العاصفة أم إلى الخوف الذي بدا أنّ العجوز غير قادرٍ على إخفائه.

- ما الذي كنتَ تفعله في الخارج، سيّد كراي؟ - سأله ماكس.

- كنتُ في حديقة التماثيل. - أجاب العجوز، وهو يستعيد هدوءه.

احتسى قليلًا من الشاي من الفنجان الساخن ووضعه على الطاولة.

- أين رولاند يا ماكس؟ - سأل متوتّرًا.

- لماذا تريد أن تعرف مكانه؟ - ردّ ماكس بنبرةٍ لا تخفي الريبة التي يوحي بها العجوز له على ضوء اكتشافاته الأخيرة.

بدا أنّ العجوز يتلقَّف شكوكه فبدأ يلوِّح بيديه، كما لو أراد أن يفسِّر ما يجول في خاطره على أنّه لا يعثر على الكلمات المناسبة.

- ماكس، قد يحدث الليلة أمرٌ خطير، إن لم نمنع حدوثه. - قال في النهاية، مدركًا أنّ تأكيده ليس مقنعًا بما فيه الكفاية - يجب أن أعرف أين رولاند. حياته في خطرٍ كبير.

ظلَّ ماكس صامتًا يتحرّى في وجه العجوز المتوسّل. لم يصدِّق أيَّ كلمة ممّا قاله حارس المنارة توًّا.

- حياة مَن تقصد، حياة رولاند أم حياة جاكوب فليشمان؟ - سأل، منتظرًا ردّة فعل فيكتور كراي.

أغمض العجوز عينيه وزفر مقهورًا.

- لا أظنّ أنّي فهمتُ قصدك يا ماكس. - غمغم.

- أمّا أنا فأعتقد أنّك فهمتني جيّدًا. أعلم أنّك كذبتَ عليّ، يا سيّد كراي. - قال ماكس، وهو يحدِّق إلى وجه العجوز بنظرةٍ اتّهاميّة - وأعرف مَن هو رولاند في الحقيقة. لقد خدعتَنا منذ البداية. لماذا؟

نهض فيكتور كراي واتّجه نحو نافذة، وألقى نظرة إلى الخارج، كأنّه ينتظر وصول أحد الزوّار. اهتزّ بيت الشاطئ إثر رعدٍ جديد. كانت العاصفة تزداد اقترابًا إلى الساحل فيما تناهى صوت الأمواج الهادرة في المحيط إلى مسامع ماكس.

- قل لي أين رولاند يا ماكس؟ - ألحَّ العجوز ثانيةً، دون أن يشيح نظره عن مراقبة الخارج عبر النافذة - لا وقت لنضيِّعه.

- لا أعرف إن كان يمكنني الوثوق بحضرتك. إن أردتَ مساعدتي، ينبغي أن تروي لي الحقيقة أوّلًا. - طالبه ماكس إذ لم يعد يسمح للرجل أن يُغيِّبَه عن الحقيقة مرّةً أخرى.

التفت العجوز نحوه ونظر إليه بحزم. تحدَّى ماكس نظرته بقوّة، لعلَّه يفهم أنّه ليس خائفًا. وبدا أنّ فيكتور كراي قد فهم القصد وارتخى على أريكةٍ مقهورًا.

- موافق يا ماكس. سأروي لك الحقيقة، إن كان هذا مرادك. - غمغم.

جلس ماكس قبالته وهزَّ رأسه، مستعدًّا للإصغاء من جديد.

- كلُّ ما رويته لكم أوّل أمس في المنارة كان حقيقةً تقريبًا. - بادر فيكتور كراي - صديقي القديم فليشمان وعد الدكتور قابيل أن يسلِّمه ابنه الأوّل مقابل إيڤا غري. وبعد الزواج بعام، عندما فقدتُ التواصل معهما، بدأ فليشمان يتلقّى زيارات الدكتور قابيل، الذي كان يذكِّره بشروط اتّفاقهما. حاول فليشمان بشتّى السبل ألّا ينجب الولد، حتّى إنّه كاد يدمِّر زواجه. وبعد غرق الأورفيوس، شعرتُ بضرورة أن أراسل كليهما وأن أحرّرهما من اللعنة التي جعلتهما تعيسين طوال أعوام. ظننتُ أنّ خطر الدكتور قابيل دُفِنَ تحت البحر إلى الأبد. أو على الأقلّ، كنتُ مغفّلًا لدرجة أنّني اقتنعتُ بذلك. شعر فليشمان بالندم وبالامتنان تجاهي، وأراد أن نعود نحن الثلاثة، إيڤا وهو وأنا، لنحيا معًا، مثل أيّام الجامعة. وكان ذلك عبثيًّا، هذا واضح. فلقد وقعت أمورٌ كثيرة تحول دون هذا. وعلى الرغم من ذلك راودته نزوة تشييد بيت الشاطئ، الذي

سيولد ابنه جاكوب تحت سقفه بعد وقتٍ قصير. وكان الطفل نعمة السماء التي ردَّت الفرحة بالحياة لكليهما. أو على الأقلّ هذا ما بدا، لأنّني منذ ليلة ولادته عرفتُ أنّ شيئًا مّا ليس على ما يرام. ففي تلك الليلة نفسها عدتُ أحلم بالدكتور قابيل. وبينما كان الطفل يكبر، أُعمِيَت بصيرةُ فليشمان وإيفا من البهجة لدرجة أنّهما لم يريا التهديد الذي كان يدنو منهما. لم يركِّزا إلّا على سعادة الصغير وإرضاء كلّ رغباته. لم يولد في الدنيا طفلٌ أكثر غنجًا ودلالًا من جاكوب فليشمان. ولكن، غدت إشارات حضور قابيل ملموسة أكثر فأكثر. وذات يوم، عندما بلغ الصبيُّ عامه الخامس، تاه وهو يلعب في الفناء الخلفيّ. بحث عنه فليشمان وزوجته بلا أملٍ لساعات، ولم يُعثَر على أثرٍ له. وعند هبوط المساء، أخذ فليشمان مشعلًا وولج إلى الغابة، ظنًّا منه أنّ الصغير ضاع بين الحشائش وتعرَّضَ لمكروه. تذكَّرَ أنّه عندما بنى البيت قبل ستّة أعوام، كانت هنالك مساحة صغيرة ومسوَّرة وفارغة، عند حدود الغابة، لعلّها مأوى للكلاب في زمانٍ غابر، ثمّ هُدِمَت في مطلع القرن. كان المكان مخصّصًا لجمع الحيوانات التي يُضحّى بها. قاده حدسه في تلك الليلة ليفكِّر أنّ ابنه دخلها وعلق فيها. وكان حدسه مصيبًا في جزءٍ منه، لكنّه لم يجد ابنه وحدَه هناك. فالمكان الذي كان في الماضي خاويًا صار آنذاك ممتلئًا بالتماثيل. وكان جاكوب يلعب وسطها عندما رآه أبوه وعاد به. وبعد يومين، جاء فليشمان لزيارتي في المنارة وقصَّ عليَّ ما حدث. وطلب منّي أن أقسِم أنّني سأرعى الصغيرَ في حال وقع له مكروه. ولم تكن تلك

سوى البداية. إذ كان فليشمان يخفي على زوجته الحوادث الغامضة التي تدور حول الطفل، لكنّه في العمق بات يدرك أن لا مخرج لديه: سيعود قابيل عاجلًا أم آجلًا ليأخذ ما هو له.

- ما الذي حدث في الليلة التي غرق فيها جاكوب؟ - قاطعه ماكس، متكهّنًا الإجابة، لكنّه رغب أن تبيِّنَ كلماتُ العجوز زيفَ مخاوفه.

طأطأ فيكتور كراي رأسه وشرد قليلًا قبل أن يجيب.

- في الثالث والعشرين من يونيو، في يومٍ مثل هذا، ومثل اليوم الذي غرقت فيه السفينة، هبَّ إعصارٌ رهيب في البحر. هرع الصيّادون لتأمين قواربهم، وأغلق أهل البلدة الأبواب والنوافذ، مثلما فعلوا في ليلة الغرق. تحوَّلت البلدة إلى قرية أشباح تحت العاصفة. وأنا كنتُ في المنارة، واجتاحني حدسٌ رهيب: الطفل في خطر. قطعتُ الشوارع المقفرة وأتيتُ إلى هنا على جناح السرعة. كان جاكوب قد خرج من البيت يمشي على الشاطئ، حيث الأمواج تتلاطم بشدّة. وكانت العاصفة عاتية والرؤية معدومة أو تكاد، لكنّي استطعتُ أن ألمح طيفًا متلألئًا يخرج من الماء ويمدّ ذراعيه الطويلتين كالمجسَّات نحو الصغير. بدا جاكوب أنّه يمشي كالنائم مغناطيسيًّا باتّجاه ذلك المخلوق المائيّ، الذي لم أتمكّن من رؤيته جيّدًا تحت الظلام. إنّه قابيل، كنتُ متأكّدًا من هذا، سوى أنّ تجلّياته كلّها بدت أنّها انصهرت في شكلٍ متقلّب الألوان... من الصعب أن أصف ما رأيتُ...

- أنا أيضًا رأيتُ ذلك الشكل. - قاطعه ماكس، ليوفِّر على

العجوز توصيف ذلك المخلوق الذي التقاه قبل ساعات فقط - تابع!

- تساءلتُ لماذا فليشمان وزوجته ليسا هناك، لا يحاولان إنقاذ الطفل، ونظرتُ نحو البيت. فإذا بفرقةٍ من شخصيّات السيرك، التي بدت أجسادًا حجريّة تتحرّك من تلقاء ذاتها، تحجزهما في المستراح.

- تماثيل الحديقة. - أكّد ماكس.

أومأ العجوز.

- لم يشغلني في تلك اللحظة إلّا إنقاذ الصغير. فذلك الشيء قد أمسكه بين ذراعيه وجذبه إلى المحيط. انقضضتُ على المخلوق واخترقتُه. فتبدّد الشكل المائيّ الضخم في الظلام. غطستُ مرّات عديدة حتّى لمستُ جسم جاكوب في الظلمات واستطعتُ الصعود به إلى السطح. سحبتُ الصغير إلى الرمال، بعيدًا عن الأمواج، وحاولتُ إنعاشه. كانت التماثيل قد اختفت مع قابيل. وركض فليشمان وإيڤا إليّ لإسعافه، لكنّ نبضه كان قد انقطع حينما وصلا. حملاه إلى البيت وجرَّبا كلَّ شيء، بلا جدوى: لقد مات. فَقَدَ فليشمان رشده وخرج يصرخ في وجه العاصفة ويعرض على قابيل حياته مقابل حياة الطفل. وبعد دقائق، فتح جاكوب عينيه، بأعجوبة. كان في حالة صدمة. لم يعرفنا ولم يبدُ أنّه يذكر حتّى اسمه. لفَّتْهُ إيڤا بغطاء وحملته إلى الأعلى حيث وضعته على السرير. وعندما نزلت، بعد قليل، دنت منّي وقالت لي بكلّ هدوء إنَّ حياة الطفل في خطر ما دام معهما.

وطلبت منّي أن أعتني به وأرعاه مثلما كنتُ سأفعل بابني، مثل الابن الذي كنّا سننجبه لو أنَّ القدر اتّخذ دربًا آخر. لم يجرؤ فليشمان على دخول البيت. وافقتُ على مطالب إيڤا ورأيتُ في عينيها كيف تفرِّط بالشيء الوحيد الذي كان يضفي على حياتها معنى. وفي اليوم التالي صحبتُ الطفل معي. ومن بعدها لم أر فليشمان ولا زوجته.

سكت فيكتور كراي طويلًا. وتملَّكَ ماكس انطباعٌ بأنّ العجوز يحاول كبت دموعه، لكنّه كان يخفي وجهه بين يديه البيضاوين والهرمتين.

- عرفتُ بعد عام أنّه توفّي، بعدوى غريبة جرّاء عضّة كلبٍ ضالّ. وما زلتُ حتّى الآن لا أعرف ما إذا كانت إيڤا غري حيّةً في مكانٍ مّا.

تفحَّصَ ماكس حالة العجوز المأساويّة وافترض أنّه أساء الحكم عليه، مع أنّه ما لبث يفضِّل اعتباره وغدًا وأنّه ليس مضطرًّا لمواجهة ما تسلِّط كلماته الضوء عليه.

- لقد اختلقتَ قصّة أبوي رولاند، واختلقتَ حتّى اسمه. . .

- خَلُصَ ماكس.

هزَّ فيكتور رأسه بنعم، معترفًا بأكبر أسرار حياته أمام فتىً في الثالثة عشرة من عمره لم يقابله إلّا مرّتين.

- أهذا يعني أنَّ رولاند لا يعرف مَن يكون في الحقيقة؟ - سأله ماكس.

نفى العجوز برأسه مرارًا فلاحظ ماكس أنّ دموع الغضب

تترقرق في عينيه اللتين أرغمتا لسنوات طويلة على عقوبة المراقبة من أعلى المنارة.

- فمَن هو المدفون في ضريح جاكوب فليشمان في المقبرة إذن؟

- لا أحد. - أجاب العجوز - لم يُبنَ ذلك القبر إطلاقًا، ولم يقم أيُّ جنّاز. الضريح الذي رأيتَه أوّل أمس ظهر في المقبرة المحلّيّة بعد أسبوع من العاصفة. ظنّ أهل البلدة أنّ فليشمان هو الذي شيَّده من أجل ابنه.

- لم أفهم. - ردّ ماكس - إن لم يكن فليشمان، فمن الذي بناه ولماذا؟

ابتسم فيكتور كراي ابتسامة مريرة في وجه الفتى.

- قابيل. - أجاب في النهاية - بناه قابيل هناك، وحجزه من أجل جاكوب منذ ذلك الوقت.

- يا إلهي. - غمغم ماكس، مستوعبًا أنّه أهدر وقتًا ثمينًا بإرغام العجوز على الاعتراف بالحقيقة كلّها - يجب إخراج جاكوب من الكوخ فورًا...

*

أيقظ غضب الأمواج المتكسّرة على الشاطئ أليسيا. كان الظلام مخيّمًا، ولا بدّ أنّ عاصفة شديدة اندلعت فوق الخليج بينما كانا نائمين، الأمر الذي يُثبِته انهمار المطر الكثيف على سقف الكوخ. نهضت أليسيا، وما زالت مشدوهة، ورأت أنّ رولاند، المستلقي على الفراش دومًا، يغمغم في نومه كلامًا مبهمًا. ماكس

ليس هناك، تصوَّرت أليسيا أنّ أخاها في الخارج ينظر إلى المطر يهطل على البحر: فهو مفتونٌ بالمطر. اتّجهت نحو الباب وفتحته، وألقت نظرة على الشاطئ.

ضبابٌ أزرق كثيف يزحف من البحر نحو الكوخ مثل شبحٍ متربِّص، وأحسَّت أليسيا بعشرات الأصوات تهمهم فيه. أغلقت الباب بشدّة واستندت إليه، وقرّرت ألّا تدع الهلع ينال منها. فتح رولاند عينيه، متوجّسًا من صفق الباب، نهض بمشقّة، دون أن يفهم كيف وصل إلى هناك.

- ما الذي يحدث؟ - استطاع أن يلفظ.

فتحت أليسيا شفتيها لكي تجيب، لكنَّ شيئًا لجمها. دُهِشَ رولاند بملاحظته الضباب الكثيف يتغلغل من كلّ شقوق الكوخ ويلتفّ حول أليسيا. صاحت الفتاة واندفع الباب الذي كانت تستند إليه نحو الخارج، مُقتَلعًا من مفاصله عبر قوّةٍ خفيّة. قفز رولاند عن السرير وركض نحو أليسيا، التي ابتعدت إلى جهة البحر ملفوفةً بذلك المخلب المتّسم بشكل الضباب البخاريّ. اعترض طريقه طيفٌ فعرف رولاند فيه الشبحَ المائيَّ الذي اجتذبه تحت البحر. أضيء وجه المهرّج الذئبيّ.

- مرحبًا يا جاكوب. - همس الصوت من خلف الشفتين الهلاميّتين.

ضرب رولاند الشكلَ المائيَّ فتفكّكَ شخص قابيل في الهواء، واندلقت منه لتراتٌ ولتراتٌ من الماء. تدحرج رولاند إلى الخارج وتلقّى صفعة العاصفة. تكوَّنت قبّةٌ هائلةٌ من سُحُبٍ أرجوانيّةٍ متلبّدة

فوق الخليج. وسقطت من عليائها صاعقةٌ مبهرة على إحدى حوافّ الصخور فتناثرت أطنانٌ من الحجارة لتذرَّ أمطارًا من جمرٍ متأجّجٍ على الشاطئ.

صرخت أليسيا، وهي تصارع للإفلات من العناق الفتّاك الذي يأسرها، وركض رولاند على الحصى نحو الشطّ. حاول أن يمسك يدها فإذا بموجةٍ عاتيةٍ توقعه أرضًا. وحينما نهض، كان الخليج كلّه يهتزّ تحت قدميه، فشعر بزئيرٍ عظيمٍ يتصاعد من أعماق البحر. تراجع الفتى خطوات، وجاهد للحفاظ على توازنه، فرأى شكلًا نورانيًّا عملاقًا يظهر من عمق البحر ويُنهِضُ أمواجًا مرتفعة في كلّ الاتجاهات. وفي منتصف الخليج، رأى رولاند صاريةً تنتأ من قلب المياه: سفينة الأورفيوس تطفو على السطح، ببطء، تحت عينيه المذهولتين، وتحيط بها هالةٌ طيفيّة.

وكان قابيل على سطح السفينة، مرتديًا دثاره، يصوِّب نحو السماء عكّازة فضيّة، وها قد سقطت صاعقة أخرى عليه، لتشعل كامل هيكل الأورفيوس بضوءٍ لامع. دوّت أصداء ضحكة الساحر الشرّيرة في الخليج بينما كان المخلب الخياليّ يحطّ أليسيا عند قدميه.

- إنّي أريدك أنت يا جاكوب. - همس صوت قابيل في ذهن رولاند - إن كنتَ لا تريد لها الموت، فتعال وخذها...

الفصل السادس عشر



كان ماكس يتدرّج تحت المطر عندما أوقعه ضياء البرق الذي كشف عن منظر الأورفيوس وهي تبرز من القاع السحيق مرصَّعةً بنورٍ مبهرٍ ينبع من معدنها نفسه. كانت سفينة الدكتور قابيل تبحر من جديد على مياه الخليج المتلاطمة. تدرَّجَ ماكس حتّى انقطعت أنفاسه، وكان يخشى الوصول إلى الكوخ بعد فوات الأوان. ترك الحارسَ العجوزَ خلفه، الذي لم يستطع أن يجاري وتيرته بأيّ شكل. بلغ ماكس حافة الشاطئ، فقفز عن درّاجته وهرع نحو كوخ رولاند. اكتشف أنّ الباب مخلوع، وحدَّدَ موقع صديقه الذي بدا مشلولًا على الشاطئ، منهمكًا بالنظر مسحورًا إلى السفينة الخياليّة التي تشقّ عباب الموج. شكر ماكس السماء وركض لمعانقته.

- هل أنت بخير؟ - صاح في وجه الريح التي تجلد الشاطئ.

وجَّهَ إليه رولاند نظرةً مشحونةً بالفزع، كمثل نظرة حيوانٍ جريح وعاجز عن الهرب من مفترسه. رأى فيه ماكس ذلك الوجهَ

الصبيانيّ الذي استرقته عدسة الكاميرا قبالة المرآة، وأصابته القشعريرة.

- لقد قبض على أليسيا. - قال رولاند في النهاية.

كان ماكس يعلم أنّ صديقه لم يفهم ما الذي يحدث حقًّا، وفطن إلى أنّه إذا حاول أن يفسِّر له الأمر كان سيعقِّد الوضع ليس إلّا.

- ابتعد عنه، مهما حدث. - قال - هل سمعتني؟ ابتعد عن قابيل.

تجاهل رولاند كلماته ونزل إلى الماء حتى وصلت الأمواج إلى خصره. ذهب ماكس خلفه وأوقفه، لكنّ رولاند الذي كان أقوى من صديقه فلت من قبضته بسهولة ودفعه بشدّة قبل أن يهمّ بالسباحة.

- انتظر! - صرخ ماكس - أنت لا تعلم ما الذي يحدث! إنّه يريدك أنت!

- أعرف. - ردَّ رولاند دون أن يعطيه مزيدًا من الوقت ليدلو بكلمةٍ أخرى.

رأى ماكس صديقه يغطس بين الأمواج ويظهر بعد عدّة أمتار وهو يسبح باتّجاه الأورفيوس. كان نصفُ روحِهِ الحَذِرُ يصيح به أن يركض نحو الكوخ ويختبئ تحت السرير إلى أن تنقضي كلُّ الأمور. لكنّه كالعادة، أصغى إلى نصفِ روحِهِ الآخر وغطس خلف صديقه، واثقًا من أنّه لن يعود هذه المرّة إلى اليابسة حيًّا.

*

انغلقت أصابع قابيل الطويلة، والمغلولة في القفّاز، على معصم أليسيا كالكمّاشة، وأحسَّت الفتاة أنّ الساحر يسحبها، يجرجرها على سطح السفينة الزلق. كافحت بشدّة في محاولةٍ لتخليص نفسها من قبضته. التفت قابيل، ورفعها في الهواء من دون بذل أدنى جهد، وقرَّبَ وجهه حتّى كاد يلامس وجهها ورأت الفتاة حدقتيه المتأجّجتين تتّسعان ويتغيّر لونهما، من الأزرق إلى الذهبيّ.

- إيّاكِ أن تكرّري ذلك! - توعَّدَها الساحر بصوتٍ حديديّ وخالٍ من الحياة - كوني مطيعة وإلّا ندمتِ. فهمتِني؟

ضاعف الساحر ضغط أصابعه الموجع فخشيت أليسيا أن يطحن عظام معصمها كما لو كانت من صلصال يابس. أدركت الفتاة أنّ المقاومة غير مجدية فهزّت رأسها بعصبيّة. خفَّفَ قابيل قبضته وابتسم. لا وجود لتعاطفٍ أو احترام في تلك الابتسامة، إنّما حقدٌ محض. ترك الساحر أليسيا فوقعت على السطح وارتطم جبينها على الحديد. تحسَّست جلدها فشعرت باحتراقٍ حادٍّ جرّاء شرخٍ في إثر السقطة. لكنّ قابيل لم يمنحها أيّ لحظة من الهدنة، أمسك ذراعها المكدومة مجدّدًا وجرَّها إلى باطن السفينة.

- انهضي! - أمرها، وهو يدفعها على امتداد ممرٍّ خلف السطح يؤدّي إلى الكبائن المسقوفة.

كانت الجدران متفحّمة ومكسوّة بالصدأ وبقشرةٍ لزجة من الطحالب القاتمة. وفي داخل السفينة هنالك شبرٌ من الماء الطينيّة التي تُصدِر أبخرةً تسبِّب الغثيان. وعشرات البقايا تعوم وتتمايل من

شدّة ترنُّح السفينة. أمسك الدكتور قابيل أليسيا من شعرها وفتح باب كابينةٍ مّا. فغُمِرَ الهواءُ بسحابةٍ من الغاز والماء الفاسد المسجون في الداخل لخمسة وعشرين عامًا. حبست أليسيا أنفاسها. شدَّها الساحر بقوّة من شعرها وجرَّها إلى الباب.

- أفضل جناح في السفينة يا عزيزتي. كابينة القبطان لضيفة الشرف عندي. استمتعي بالصحبة.

دفعها قابيل بعنف إلى الداخل وأوصد الباب خلف ظهره. وقعت أليسيا على ركبتيها وتحسَّست الجدران خلفها، بحثًا عمّا تستند إليه. كانت الكابينة غارقة في الظلام كلّيًّا أو تكاد، وما من ضياءٍ يشقّ طريقه سوى الآتي من كوة صغيرة كستها السنوات الطويلة تحت الماء بطبقة كثيفة شبه شفّافة من الطحالب والفضلات العضويّة. وكانت الزعزعة المتواصلة للسفينة في مهبّ العاصفة ترمي أليسيا من جدار إلى آخر. تشبَّثت بأنبوب صدئ وراحت تتحرّى في الظلام، وتكافح لكي تتجاهل تلك الرائحة العفنة والثاقبة التي تطغى على المكان. استغرقت عيناها دقيقتين لتعتاد ضحالة الضوء التي سمحت لها بمعاينة الزنزانة التي حجزها لها قابيل. لا مخرجَ في المنظور سوى الباب الذي أوصده الساحر عندما ذهب بعيدًا. بحثت أليسيا بلا أملٍ عن قضيبٍ معدنيّ أو غرضٍ صلب لعلَّها تخلع به الباب فما عثرت على شيء. وبينما كانت تتلمَّس في الظلام، بحثًا عن أداةٍ تتحرّر بوساطتها، لامست يداها شيئًا مسنودًا إلى الجدار. أزاحته أليسيا مرتابةً به. فسقطت رفاة قبطان الأورفيوس المشوَّهة عند قدميها، وعندئذ فهمت أليسيا

ما الذي عناه قابيل بـ«الصحبة». لم يلعب القدر لمصلحة العجوز الهولنديّ الهائم. فغطّى دويّ البحر والعاصفة على صرخات الفتاة.

*

كلّما تقدَّمَ رولاند مترًا بسباحته نحو الأورفيوس، جذبه غضب البحر تحت الماء وأعاده إلى السطح بموجةٍ متلاطمة، ولفَّهُ بدوّامةٍ من الزبد التي لا يمكن مواجهة قوّتها. كانت السفينة قبالته تصارع الأمواج العاتية والمرتفعة بعلوِّ الأسوار التي تخبطها العاصفة على هيكل السفينة.

وكلّما اقترب منها، صعَّب عليه عنفُ البحر التحكُّمَ بوجهته المتأرجحة بفعل التيّار، فخشي رولاند أن تقذفه موجةٌ مباغتة ليرتطم بجوانب السفينة ويفقد حواسّه. فإن وقع ذلك كان البحر سيلتهمه بشراهة ولن يعود إلى سطح الماء أبدًا. غاص رولاند ليتملّص من قمّة الموجة التي ربضت فوقه وعام من جديد، وهو ينظر إليها تبتعد نحو الشطّ وتشكِّل غورًا مائيًّا عكرًا ومتقلّبًا.

تفصله عن الأورفيوس قرابة اثني عشر مترًا من حيث كان، وإذ نظر إلى الجانب الفولاذيّ المكسوّ بالضوء الباهر أدرك رولاند استحالة التسلُّق حتّى سطح السفينة. الطريق الوحيد الممكن هو عبر الفجوة التي فتحتها الصخور في الهيكل، وسبَّبت غرق السفينة قبل خمسة وعشرين عامًا. والفجوة موجودة عند خطّ الطفو وهي تظهر وتختفي تحت الماء مع كلّ ارتفاع موجة. وكانت الرقع الحديديّة المحيطة بالثقب الأسود تشبه فم حيوانٍ بحريٍّ كبير.

فمجرُّد تخيُّل دخول تلك الفتحة كان يرعب رولاند، لكنّها فرصته الوحيدة للوصول إلى أليسيا. جاهد كي لا تقذفه الموجة التالية بعيدًا، وعندما مرَّت الموجة من فوقه، انطلق نحو الثغرة وولج فيها مثل طوربيدٍ بشريٍّ متوجِّهٍ نحو الظلمات.

*

قطع فيكتور كراي لاهث الأنفاس الحشائش البرّيّة التي تفصل الخليج عن طريق المنارة. كانت الأمطار والريح تضرب بقوّة وتعترض مسيره كأيدٍ خفيّةٍ مبلّلة لتبقيه بعيدًا. وعندما استطاع الوصول إلى الشاطئ، كانت الأورفيوس تنتأ في وسط الخليج، وتبحر بخطٍّ مستقيم نحو الجرف الصخريّ محاطةً بهالةٍ من نورٍ خارقٍ للعادة. وكان حيزوم السفينة يشقّ الأمواج التي تكتسح سطحها وترفع سحابةً من زبدٍ أبيض كلَّما اهتزّ المحيط. خيّمت عليه الخيبة: لقد تحقّقت أسوأ مخاوفه ولقد فشل؛ أنهكت السنون ذهنه وخدعه أمير الضباب ثانيةً. وبات لا يطلب من السماء سوى ألّا يفوت الأوان على إنقاذ رولاند من المصير الذي أعدَّه له الساحر. في تلك اللحظة كان فيكتور كراي ليضحّي بحياته بكلّ سرور، إن كان هذا يضمن لرولاند فرصة للهرب. ورغم ذلك أخبره حدسٌ مشؤومٌ أنّه عاجزٌ عن صون العهد الذي قطعه لوالدة الطفل.

مشى فيكتور كراي نحو كوخ رولاند وكلُّهُ أملٌ يائسٌ بأن يجده هناك. لا أثر لماكس ولا للفتاة، حتّى إنّ رؤية الباب مخلوعًا على الشاطئ عزَّزَت في نفسه أسوأ التوقّعات. لكنَّ بارقة أملٍ أضاءت

في قلبه عندما لاحظ وجود نورٍ في داخل الكوخ. سارع حارس المنارة نحو المدخل، وهو يصيح مناديًا رولاند. فخرج تمثالٌ حجريٌّ شاحبٌ وحيٌّ - رامي السكاكين - لملاقاته.

- تأخَّرَ الوقت على الشكوى أيّها الجدّ. - عرف العجوز صوت قابيل.

تراجع فيكتور كراي قليلًا، إلّا أنّ هناك أحدًا مّا خلف ظهره، وقبل أن يتمكّن من التصرُّف، أحسَّ بضربة حادّة على رقبته. ثمّ سقط في الظلام.

*

انتبه ماكس أنّ رولاند يلج إلى الأورفيوس من خلال الفجوة، وشعر بقواه تخور مع كلّ موجةٍ ضاربة. لم يكن سبَّاحًا يضاهي رولاند ولن يستطيع البقاء عائمًا لوقت طويل في خضمّ هذه العاصفة، إلّا إذا أوتي وسيلةً للصعود على متن السفينة. ومن جهةٍ أخرى، اتّضح أنّ الخطر ينتظرهما في باطن السفينة، وكلّما مرّت دقيقة أدرك ماكس أنّ الساحر كان يجذبهما إليه مثل ينجذب الذباب إلى العسل.

سمع ماكس فرقعةً مدويّة، فرأى أنّ جدارًا هائلًا من المياه ينهض خلف مؤخّرة الأورفيوس ويقترب منها بسرعة جنونيّة. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى دفع ارتطام الموجة السفينة إلى الجرف واندسّت المقدّمة بين الصخور، مسبِّبةً هزّةً عنيفة للهيكل برمّته. تداعت الصارية التي تحمل الإشارة الضوئيّة إلى جانب السفينة وسقط طرفها على بُعد أمتار عن ماكس الذي غاص في الماء.

سبح بمشقّة، تشبّث بالصارية واستراح عليها قليلًا لالتقاط أنفاسه. وعندما رفع عينيه، رأى أنّ الصارية المحطّمة تمدّ له جسرًا إلى سطح السفينة. وقبل أن تنتزعه موجة جديدة من هناك وتحمله معها إلى الأبد، بدأ ماكس يتسلّق الأورفيوس دون أن ينتبه إلى وجود طيفٍ ينتظره هناك متحجّرًا، ومستندًا إلى سياج ميمنة السفينة.

*

دفع التيّار رولاند عبر العنبر المغمور وحجب الفتى وجهه بذراعيه اتّقاء لضربات اندفاعه ما بين بقايا الحطام. وظلَّ يتأرجح بالماء حتّى اهتزّ الهيكل بعنفٍ فقُذِفَ إلى جدار، حيث استطاع التمسُّك بسلّم معدنيّ صغير يصعد نحو الجزء الأعلى من السفينة.

تسلّق السلم الضيّق واجتاز كوّةً تفضي إلى صالة الآلات المظلمة التي كانت تستضيف محرّكات الأورفيوس المحطّمة. تخطّى بقايا الأجهزة إلى الممرّ المؤدّي إلى السطح، وهناك قطع الكبائن بسرعة حتّى بلغ قمرة القيادة. كان يتملّكه إحساسٌ غريب بأنّه يعرف كلّ زاوية في تلك القمرة وكلّ الأغراض التي رآها مرارًا أثناء الغوص. وكانت نقطة المراقبة تلك تشرف على إطلالة كاملة للسطح الأماميّ، حيث تكتسحه الأمواج لتختفي بالانزلاق على منصّة السطح. وفجأةً شعر أنّ السفينة تندفع إلى الأمام بقوّةٍ لا تجارى وتأمَّلَ مشدوهًا الجرف الذي يظهر من بين الظلال عند حيزوم السفينة. كان سيصطدم فيه خلال ثوان معدودة.

سارع رولاند إلى الاحتماء بعجلة الدفّة لكنّ قدميه انزلقتا على

شريط الأعشاب البحريّة التي تغطّي الأرضيّة. فتدحرج بضعة أمتار حتّى اصطدم بجهاز الإرسال القديم، وأحسَّ جسمه بالاهتزاز الرهيب على إثر اصطدام الهيكل بالجرف. وما إن مرَّت اللحظة الأسوأ، نهض وسمع صوتًا قريبًا، صوتًا بشريًّا في خضمّ العاصفة. تكرّر الصوت حتّى عرفه رولاند: أليسيا تطلب النجدة وهي تصيح من أحد جوانب السفينة.

*

كانت الأمتار العشرة التي اضطرّ ماكس إلى صعودها، على طول الصارية، لبلوغ سطح الأورفيوس، تبدو له مئة متر. فالخشب بات عفنًا ومشروخًا لدرجة أنّ ذراعيه وساقيه غصّت بالجروح الصغيرة التي ولّدت فيه حرقةً قويّة عندما وصل إلى المتن. اعتقد ماكس أنّه من الحكمة عدم التوقُّف لمعاينة تلك الرضوض فمدَّ يده نحو السياج المعدنيّ.

وحين تشبَّثَ به جيّدًا، قفز بطريقة حمقاء على السطح ووقع على وجهه. مرّ أمامه طيفٌ قاتم فرفع ماكس عينيه، مؤملًا في رؤية رولاند. فتح قابيل دثاره وأظهر غرضًا ذهبيًّا يتدلّى من على طرف سلسلة. فعرف ماكس ساعته.

- هل تبحث عن هذه؟ - سأله الساحر، وجلس القرفصاء بجانب الفتى وأخذ يؤرجح الساعة التي أضاعها ماكس في ضريح جاكوب فليشمان.

- أين جاكوب؟ - سأله ماكس، متجاهلًا التكشيرة الهازئة التي بدت أنّها راسخة على وجه قابيل مثل قناعٍ من الشمع.

- هذا هو سؤال اليوم. - أجاب الساحر - وستساعدني أنت على الإجابة عنه.

أغلق قابيل قبضته على الساعة فسمع ماكس طقطقة المعدن. وعندما فتح الساحر كفَّه ثانيةً، لم يكن قد بقي من هديّة والده إلّا خردة مشوَّهة من مسامير ولوالب مهشَّمة.

- لا وجود للوقت يا عزيزي ماكس؛ إنّه وهم. حتّى صديقك كوبرنيكوس كان سيعي ذلك لو أنّه حصل بالضبط على مزيدٍ من الوقت. يا للتناقض، أليس كذلك؟

حَسَبَ ماكس في ذهنه الإمكانيّات المتوافرة لديه للقفز عن السفينة والفرار من الساحر. اشتدّت قبضة قابيل بقفّازه الأبيض على حلق الفتى قبل أن يتسنّى له التنفُّس.

- ما الذي ستفعله بي؟ - أنَّ ماكس.

- ما الذي ستفعله بنفسك لو كنتَ مكاني؟ - سأله الساحر.

شعر ماكس أنّ القبضة القاتلة تمنعه من التنفّس ودوران الدم في رأسه.

- سؤالٌ وجيه، أليس كذلك؟

أفلت الساحرُ قبضته. فارتطم جسم ماكس بالمعدن الصدئ حتّى تغبَّشت لديه الرؤية قليلًا واجتاحه تشنُّجٌ وغثيان.

- لماذا تطارد جاكوب؟ - تلعثم ماكس، محاولًا أن يكسب الوقت لمصلحة رولاند.

- العمل هو العمل يا ماكس. - أجاب الساحر - لقد احترمتُ ما يقتضيه عليَّ الاتّفاق.

- ولكن ما أهمّيّة حياة فتى بالنسبة إليك؟ - صرخ ماكس - ثمّ إنّك قد انتقمتَ أساسًا بقتل الطبيب فليشمان، أليس صحيحًا؟

أُضيء وجه قابيل، كما لو أنّ ماكس وجّهَ إليه السؤال الذي كان يتوق للإجابة عنه منذ بداية حديثهما.

- عندما لا يوفى القرض، ينبغي دفع الفوائد. إلّا أنَّ هذا لا يلغي الدَّيَن. هذا هو قانوني. - فحَّ صوتُ الساحر - ثمّ إنّها غذائي. حياة جاكوب وحياة الكثيرين مثله. هل تعلم منذ متى وأنا أجوب الدنيا يا ماكس؟ هل تعلم كم اسمًا غيَّرتُ؟

نفى ماكس، ممتنًّا لكلّ ثانيةٍ يهدرها الساحر في الحديث معه.

- أخبرني. - ردّ بصوتٍ هامس، متظاهرًا بإعجابٍ متخوِّف بمن يخاطبه.

ابتسم قابيل مسرورًا. وفي تلك اللحظة وقع ما خشي ماكس وقوعه. ففي خضمّ العاصفة، دوّى صوت رولاند مناديًا أليسيا. تبادل ماكس والساحر نظرةً؛ فلقد سمعه كلاهما. اختفت الابتسامة وسرعان ما استعاد قابيل مظهره العابس كأنّه مفترسٌ دمويٌّ يتضوّر جوعًا.

- يا لك من ماكر. - غمغم.

ابتلع ماكس ريقه، مستعدًّا لما هو أسوأ.

فتح الساحر كفّه أمامه، فذُهِلَ ماكس من أنَّ كلّ إصبعٍ تتحوّل إلى نصلٍ طويل. صرخ رولاند مجدّدًا، على بعد مسافة قصيرة. التفت قابيل لينظر إلى الخلف، فقفز ماكس إلى متن السفينة.

وانغلق مخلب الساحر على رقبته وأداره ببطء، حتّى صار وجهًا لوجهٍ مع أمير الضباب.

- من المؤسف أنّ صديقك لا يمتاز بنصف مقدراتك. ربّما عليَّ أن أتعاقد معك. في المرّة القادمة. - بصقت شَفَتا الساحر - إلى اللقاء يا ماكس. آمل أنّك تعلَّمت الغوص من المرّة الأخيرة.

وبقوّة قطارٍ بخاريّ، قذف الساحرُ الفتى في الهواء وأعاده إلى البحر. شكَّلَ جسم ماكس قوسًا أطول من عشرة أمتار وسقط في المياه، في التيّار المتجمّد والشديد. جاهد ليطفو وجدَّفَ بساقيه وذراعيه بكلّ قواه ليهرب من القوّة الفتّاكة التي كانت تجذبه نحو ظلمات القاع السوداء. سبح كيفما اتّفق، وشعر أنّ رئتيه ستنفجران، حتّى ظهر أخيرًا بقرب الجرف الصخريّ. استنشق الهواء بشراهة، وعانى للبقاء على سطح الماء، وفعل بحيث تحمله الأمواج تدريجيًّا نحو الجزء الصخريّ، حيث تشبَّثَ بنتوءٍ يعينه على التسلُّق والنجاة. خدشت أظفار الصخر جلده، وأحسَّ أنّ جروحًا صغيرة تتفتّح على أطرافه التي خدَّرها البرد الذي أنساه الألم تقريبًا. حاول أن يتجنّب الإغماء، فصعد بضعة أمتار حتّى وجد فتحةً بين الصخور بعيدًا عن متناول الأمواج. وحينذاك استلقى على الصخر القاسي واكتشف أنّه مذعور لدرجةٍ لم يصدِّق فيها أنّه نجا.

الفصل السابع عشر



انفتح باب الكابينة ببطء، فحبست أليسيا أنفاسها وهي منزوية ومتحجّرة في بقعة معتمة. ظهر ظلّ أمير الضباب في داخل الغرفة، وما لبثت عيناه المتّقدتان كالجمر يتغيّر لونهما، من الذهبيّ إلى الأحمر القاني. دخل قابيل إلى الكابينة واقترب منها. حاولت أليسيا إخفاء ارتجافها الذي استبدّ بها، وواجهت الزائر بنظرة تحدٍّ. أبرز الساحر ابتسامة كلبيّة في مواجهة تلك الكبرياء.

- لا بدّ أنّها تقاليد العائلة. كلُّكم موهوبون بالبطولة. - علَّقَ الساحر بلطافة - بدأتم تنالون إعجابي.

- ما الذي تريده؟ - قالت أليسيا، وهي تسبغ صوتها المرتعش بكلّ الاحتقار الذي استطاعت إبداءه.

بدا أنّ قابيل يقيِّم السؤال، خلع قفّازيه ببطء. لاحظت أليسيا أنّ أظفاره طويلة ومسنّنة مثل حدّ الخنجر. أشار إليها بإحدى تلك الأظفار.

- هذا متعلِّقٌ بما تقترحين عليّ. - قال الساحر برقّة، دون أن يحيد عينيه عن وجه أليسيا.

- ليس لديّ ما أعطيه لك. - ردّت، وهي توجِّه نظرةً خاطفة إلى باب الكابينة المفتوح.

نفى قابيل بإصبعه، وهو يقرأ نواياها.

- هذه ليست فكرة جيّدة. - أشار - فلنعد إلى موضوعنا. لم لا نعقد اتّفاقًا؟ تفاهمٌ بين الكبار، فلنسِّمه كذلك.

- ما هو؟ - قالت أليسيا وبذلت جهدًا لتتجنّب نظرة قابيل المخدِّرة التي بدت أنّها تمتصّ إرادتها بشراهة طفيليٍّ على الأرواح.

- هكذا تعجبينني، فلنتحدّث عن الأعمال. قولي لي يا أليسيا، هل تودّين إنقاذ جاكوب، أقصد رولاند؟ إنّه شابٌّ وسيم، برأيي. - اقترح الساحر وهو يتذوّق كلَّ كلمة من عرضه برقّةٍ لامتناهية.

- ما الذي تريده بالمقابل؟ حياتي؟ - ردّت أليسيا، وكانت جُملها تتدفّق من حنجرتها دون أن تعطيها الوقت للتفكير فيها.

شبك الساحر يديه وقطَّبَ حاجبيه متروّيًا. لاحظت أليسيا أنّه لا يغمض جفنًا على الإطلاق.

- كنتُ قد فكّرتُ في أمرٍ آخر يا عزيزتي. - فسَّرَ لها وهو يداعب شفته السفلى بأنملة سبَّابته - ما رأيكِ أن تعطيني حياة ابنكِ الأوّل؟

دنا منها قابيل ببطء وقرَّبَ وجهه من وجه الفتاة. شمَّت أليسيا

رائحة عفونة مائلة إلى الحلاوة تسبِّب الغثيان تفوح من قابيل. واجهت نظرته وبصقت في وجهه.

- اذهب إلى الجحيم. - قالت وهي تلجم غضبها.

تبخَّرت قطرات اللعاب كما لو أنّها سقطت على مشواة معدنيّة ساخنة.

- يا طفلتي الغالية، إنّني آتٍ من هناك. - ردَّ قابيل.

مدَّ يده العارية ببطء نحو وجه أليسيا. أغمضت الفتاة عينيها وأحسَّت على جبينها تماس أصابعه المتجمّدة وأظفاره الطويلة والحادّة بضع ثوان. بدا لها الانتظار أبديًّا. وفي النهاية سمعت خطواته تبتعد وباب الكابينة ينغلق من جديد. خرجت رائحة العفن من وصلات الفتحة مثلما يخرج البخار من صمّامات الضغط. شعرت أليسيا برغبة في البكاء وخبط الجدران حتّى يزول غضبها، لكنّها بذلت جهدًا كي تحافظ على أعصابها وصفاء ذهنها. لا بدّ أن تخرج من هناك وليس لديها كثيرٌ من الوقت.

ذهبت إلى الباب وتحسّست حوافّه بحثًا عن ثغرة أو صدعٍ تحاول من خلاله أن تخلعه. لا شيء. كان قابيل قد احتجزها في ناووسٍ من ألومينيوم صدئ، رفقة عظام القبطان العجوز. وفي تلك اللحظة اهتزّت السفينة جرّاء صدمةٍ مّا ووقعت أليسيا على وجهها.

وبعد ثوان، سمعت صوتًا خافتًا يتصاعد من باطن السفينة. وضعت أليسيا أذنها على الباب وأصغت بانتباه: كان ذلك خرير المياه المتدفّقة بشكلٍ لا لبس فيه. كميّة كبيرةٌ من المياه. أدركت

أليسيا ما الذي كان يحدث بهلعٍ شديد: هيكل الأورفيوس يفيض، السفينة تغرق من جديد، بدءًا بالعنبر. وهذه المرّة لم تتمالك نفسها من صيحة ذعر.

*

مشَّطَ رولاند كلّ السفينة بحثًا عن أليسيا ولم يجدها. تحوّلت الأورفيوس إلى سردابٍ كالمتاهة المائيّة التي لا تنتهي ممرّاتها وأبوابها الموصدة. من الممكن أن يكون الساحر قد أخفاها في عشرة أماكن. عاد رولاند إلى السطح وحاول أن يستنتج أين قد تكون محتجزة. اختلّ توازنه جرّاء الصدمة التي هزّت السفينة فسقط على الأرضيّة اللزجة والزلقة. وظهر قابيل من بين ظلال السطح، كما لو أنّه طيفٌ تجلّى من معدن الأرضيّة التالف.

- نحن نغرق يا جاكوب. - فسَّرَ الساحر ببرود وأشار إلى ما حوله - لم تحظَ يومًا بحسّ اقتناص الفرص، صحيح؟

- لا أدري عمّا تتحدّث حضرتك. أين أليسيا؟ - سأله رولاند متأهّبًا للانقضاض على الخصم.

أغمض الساحر عينيه وضمَّ كفّيه كما لو أنّه يرتّل صلاة.

- في مكانٍ مّا من هذه السفينة. - ردَّ قابيل بهدوء - إن كنتَ غبيًّا بما فيه الكفاية للوصول حتّى هنا، فلا تهدم كلَّ شيء الآن. أتريد إنقاذ حياتها يا جاكوب؟

- اسمي رولاند. - زأر الفتى.

- رولاند، جاكوب... ما الذي سيعنيه اسمٌ أو آخر؟ -

ضحك قابيل - أنا كذلك حصلتُ على أسماء كثيرة. ما أمنيتك يا رولاند؟ تريد إنقاذ صديقتك. صحيح، ها؟

- أين احتجزتها؟ - ردَّدَ رولاند - أيّها اللعين! أين هي؟

فرك الساحر كفّيه، كأنّه يشعر بالبرد.

- هل تعلم كم تستغرق سفينةٌ كهذه لتغرق يا جاكوب؟ لا تخبرني. دقيقتين كحدٍّ أقصى. مذهل أليس كذلك؟ ما رأيك؟ - ضحك قابيل.

- أنت تريد جاكوب، أو أيًّا كان ما تفضِّل مناداتي به. - أكَّدَ رولاند - إنّه لديك، لن أهرب. أفرج عن أليسيا.

- كم أنت أصيل يا جاكوب. - أفصح الساحر وهو يدنو من الفتى - الوقت يوشك على النفاد يا جاكوب. دقيقة واحدة.

بدأت الأورفيوس تترنّح على ميمنتها. وأخذت المياه التي تفيض بالسفينة تهدر تحت قدميه بينما كان الهيكل المعدنيّ الضعيف يهتزّ بشدّة، خاضعًا للغضب الذي يشقّ به التيّار طريقه في باطن السفينة، كالأسيد على لعبةٍ كرتونيّة.

- ماذا عليَّ أن أفعل؟ - توسَّلَ رولاند - ما الذي تنتظره منّي؟

- جيّد يا جاكوب. أرى أنّنا بدأنا نستخدم عقلنا. أنتظر منك أن تحترم الجزء الثاني من الاتّفاق الذي لم يكن والدك قادرًا على احترامه. - أجاب الساحر - لا أكثر. ولا أقلّ.

- والدي توفّي بحادث سير، وأنا... - بادر رولاند يقول يائسًا.

حطَّ الساحر بحركةٍ أبويّةٍ يدَهُ على كتف الفتى. فشعر رولاند بتماس أصابعه المعدنيّة.

- نصف دقيقة يا ولدي. تأخَّرَ الوقت على القصص العائليّة.

- قاطعه قابيل.

كانت المياه تكتسح السطح وقمرة القيادة فوجَّهَ رولاند آخر نظرة توسُّلٍ إلى الساحر. جثم قابيل قبالة الفتى وابتسم له.

- هل نبرم اتّفاقًا، جاكوب؟ - همس.

تقاطرت الدموع من عيني رولاند، هزَّ رأسه ببطء.

- جيّد، جيّد، يا جاكوب. - غمغم قابيل - مرحبًا بك في البيت...

نهض الساحر وأشار إلى أحد الممرّات الموصولة بقمرة القيادة.

- الباب الأخير. - قال - ولكن خذ هذه النصيحة: عندما ستنجح في فتحه، لن يكون لدى صديقتك نفخة هواء واحدة تتنفّسها. أنت بارع في الغوص يا جاكوب. ستتدبّر أمرك. تذكَّرْ اتّفاقنا...

ابتسم قابيل للمرّة الأخيرة، والتفَّ بدثاره واختفى في الظلمات بينما كانت خطواته الخفيّة تبتعد على السطح وتخلِّف بصماتٍ من معدنٍ مصهور في هيكل السفينة. ظلَّ الفتى مشلولًا بضع ثوان، يلتقط أنفاسه، حتّى ارتمى على الدفّة المتحجّرة بفعل هزّة جديدة. كانت المياه قد وصلت إلى مستوى السطح الأعلى.

انقضّ رولاند نحو الممرّ الذي أشار إليه الساحر. المياه

تتدفّق من فتحات الضغط وتغمر الممرّ فيما تغوص الأورفيوس نحو القاع تدريجيًّا. ضرب رولاند الباب بقبضتيه عبثًا.

- أليسيا! - صرخ مع أنّه كان يعلم أنّها قد لا تسمعه من خلف تلك السماكة الفولاذيّة - أنا رولاند. احبسي أنفاسكِ! سأخرجكِ من هنا!

أمسك مقبض الباب وحاول تدويره بكلّ قواه، فتجرَّحت كفّاه بينما كانت المياه المتجمّدة تصل إلى مستوى خصره وما انفكّت تتصاعد. تراخى المقبض سنتمترين. التقط رولاند نفسًا عميقًا وحاول من جديد، فاستطاع أن يدوِّره شيئًا فشيئًا إلى أن وصل منسوب المياه إلى وجهه وغمر الممرّ بأكمله. وساد الظلام على الأورفيوس.

عندما انفتح الباب، غاص رولاند تحت الماء إلى داخل الكابينة المعتمة يتحسَّس طريقه كالأعمى بحثًا عن أليسيا. ظنَّ للحظةٍ رهيبة أنّ الساحر قد خدعه وأن لا أحد هناك. فتح عينيه مقاومًا الحكّة، وحاول أن يتبصَّرَ شيئًا مّا في الظلمات البحريّة. وفي النهاية لامست يداه أهداب ثوب أليسيا التي كانت تتخبّط متوتّرةً ما بين الهلع والاختناق. عانقها وحاول أن يطمئنها، لكنّ الفتاة لم تكن تعلم مَن أو ما الذي أمسك بها في ظلام الماء. كان رولاند يعي أنّه لم يتبقَّ لديه سوى بضع ثوان، فأحاط بعنقها وسحبها نحو الخارج. وما زالت السفينة تسارع في هبوطها المحتوم. جذَّفت أليسيا بلا فائدة وسحبها رولاند إلى قمرة القيادة عبر الممرّ حيث تعوم البقايا التي انتزعتها المياه من باطن

الأورفيوس. كان يعلم أنّهما لن يتمكّنا من الخروج من السفينة إلّا عندما تلامس القاع، وفي حال جرَّبَ ذلك قبل الأوان كانت الدوّامة المائيّة ستجذبهما حتمًا إلى التيّار. ومع هذا، لم يتناسَ أنّه مرّت ثلاثون ثانيةً منذ تنفَّست أليسيا للمرّة الأخيرة، وأنّها ستبدأ بابتلاع الماء نظرًا إلى حالة الهلع التي اجتاحتها. ومن المحتمل أنّ الصعود نحو السطح بالنسبة إليها يمثِّل طريقًا نحو الموت المحقَّق. إذ كان قابيل قد خطَّطَ للعبته بعنايةٍ فائقة.

بات انتظار ملامسة السفينة للقاع عذابًا لا ينتهي، وعندما حدث الارتطام، سقط جزءٌ من سقف القمرة عليه وعلى أليسيا. تصاعَدَ ألمٌ شديدٌ إلى ساقه فأدرك رولاند أنّ المعدن قد حطَّ ثقله على كاحله، فيما كان ضياء الأورفيوس يتبدّد ببطء في أعماق البحر.

قاوم رولاند الألمَ الثاقب الذي قبض على ساقه وبحث عن وجه أليسيا في العتمة. كانت عينا الفتاة مفتوحتين، وتتحرَّك عند حدود الاختناق. لم يعد بإمكانها حبس أنفاسها ثانيةً إضافيّة، وفلتت من بين شفتيها فقاعات الهواء الأخيرة مثل لآلئ مشحونة باللحظات الأخيرة لحياةٍ تنطفئ.

أمسك رولاند وجهها بحيث انطبقت عيناها على عينيه. فاتّحدت نظراتهما، وفهمت أليسيا مباشرةً ما الذي كان يجول في خاطر صديقها. هزّت رأسها مستنكرة، وحاولت إقصاء رولاند عنها. فأشار إلى كاحله العالق في قبضةٍ قاتلةٍ من دعامات السقف المعدنيّة. سبحت أليسيا في المياه المتجمّدة نحو الدعامة المنهارة

وحاولت أن تخلِّص رولاند. تبادلا نظرةً يائسة. لا شيء ولا أحد باستطاعته إزاحة أطنان من الفولاذ الذي يقيّد قدمه. سبحت أليسيا نحوه ثانيةً وعانقته، وهي تشعر بفقدان وعيها بسبب انعدام الهواء. وما لبث رولاند أن أمسك بوجه أليسيا، وأطبق شفتيه على شفتيها، ونفخ في فمها الهواء الذي كان قد حفظه في صدره من أجلها، مثلما توقَّعَ قابيل منذ البداية. استنشقت أليسيا الهواء من شفتيه وشدَّت بقوّةٍ على يديه، لتتّحد معه في قبلة النجاة تلك.

وجَّهَ إليها الفتى نظرة الوداع اليائسة ودفعها رغمًا عنها إلى خارج القمرة، حيث همَّت أليسيا صعودها نحو سطح البحر ببطء. وكانت تلك هي المرّة الأخيرة التي ترى أليسيا فيها رولاند. وبعد ثوان، ظهرت أليسيا في وسط الخليج ولاحظت أنّ العاصفة قد ابتعدت نحو البحر المفتوح، حاملةً معها كلَّ الآمال التي علَّقتها الفتاة على المستقبل.

*

عندما رأى ماكس وجه أليسيا يظهر على سطح الماء، غطس من جديد وسبح مستعجلًا نحوها. كانت شقيقته تعوم بمشقّة وتغمغم بكلمات غير مفهومة، وتسعل بعنف وتبصق الماء الذي ابتلعته أثناء صعودها. أمسكها ماكس من كتفيها وسحبها إلى حيث وطئت قدماه القاع على بُعد مترين عن الشاطئ. كان حارس المنارة ينتظر على الشاطئ، فهرع لنجدتهما. أخرجا أليسيا من الماء معًا ومدَّداها على الرمل. حاول فيكتور كراي أن يجسَّ نبضها، لكنّ ماكس أبعد يد العجوز المرتجفة برفق.

- إنّها حيّة، يا فيكتور كراي. - فسَّرَ له وهو يتلمّس جبين شقيقته - إنّها حيّة.

أومأ العجوز وأسند لماكس الاعتناء بأليسيا. وراح يترنّح كجنديٍّ بعد معركة طويلة، يمشي باتّجاه البحر، ونزل في المياه إلى أن وصلت حتّى حزامه.

- أين عزيزي رولاند؟ - غمغم العجوز ملتفتًا نحو ماكس - أين حفيدي؟

نظر إليه ماكس بصمت، وهو يرى روح العجوز المسكين والقوى التي اختزنها طوال تلك السنوات في قمّة المنارة تتبدّد مثل حفنة رمل تتسرَّب من بين أصابعه.

- لن يعود يا فيكتور. - أجاب الفتى في النهاية، والدموع تترقرق في عينيه - رولاند لن يعود.

نظر إليه حارس المنارة كما لو أنّه لا يفهم ما يقول. ثمّ هزَّ رأسه متأسّفًا، لكنّه وجَّهَ نظراته إلى البحر بانتظار أن يظهر حفيده وينضمَّ إليه. ثمّ هدأت المياه شيئًا فشيئًا، وأضاء إكليلٌ من النجوم في المدى. ولم يعد رولاند.

الفصل الثامن عشر



في اليوم التالي للعاصفة التي اجتاحت الساحل خلال الليلة الطويلة للثالث والعشرين من يونيو عام ١٩٤٣، عاد ماكسيمليان كارڤر وزوجته أندريا إلى بيت الشاطئ مع الصغيرة إيرينا، التي تخطّت مرحلة الخطر لكنّها ما تزال في حاجة إلى بعض الوقت لكي تتعافىٰ كلّيًّا. وكانت الريح العاتية التي جلدت البلدة حتّى الفجر بقليل خلّفت وراءها صفًّا من الأشجار والأعمدة الكهربائيّة المنهارة، والقوارب المرميّة في عرض البحر، والنوافذ المحطّمة في غالبيّة واجهات المباني. كان ماكس وأليسيا ينتظران صامتين، جالسين في المستراح، وما إن نزل ماكسيمليان كارڤر من السيّارة التي أوصلتهم إلى البيت حتّى أدرك من وجهيهما وثيابهما الممزّقة أنّ خطبًا جللًا قد وقع.

وقبل أن يتسنّى له صياغة السؤال، فهم من نظرة ماكس أنّه لا مجال آنذاك لأيّ توضيح، هذا إن كان هنالك توضيح أساسًا. فمهما بلغ سوء ما وقع، كان ماكسيمليان كارڤر يعلم أنّ الحياة

نادرًا ما تسمح لنا أن ندرك الأمور من دون ضرورة إلى الكلام أو شرح الأسباب، وأنّ نظرات ابنيه الحزينة تكشف عن نهاية شوطٍ في حياتهما.

وقبل أن يدخل بيتَ الشاطئ، نظر ماكسيمليان كارڤر في عيني أليسيا، اللتين كانتا مثل بئرٍ لا قرار لها، وهي ترنو سارحةً نحو خطّ الأفق كأنّها ترجو أن تجد فيه حلًّا لكلّ تساؤلاتها؛ تساؤلاتها التي لم يكن هو ولا أحد غيره قادرًا على الإجابة عنها. وفجأةً، أدرك أنّ ابنته تكبر، وأنّها ستسلك يومًا ما ليس ببعيد، دربًا جديدًا في البحث عن إجاباتها الخاصّة بها.

*

كانت المحطّة الحديديّة غارقةً في سحابة من بخارٍ ينفثها القطار. سارع المسافرون إلى ركوب العربة وتوديع أحبَّتهم وأصدقائهم الذين رافقوهم إلى الرصيف. تأمَّلَ ماكس في الساعة القديمة التي رحَّبت بهم عند قدومهم إلى البلدة، ولاحظ أنّ العقارب هذه المرّة قد توقّفت إلى الأبد. اقترب الحمَّال من ماكس وفيكتور بكفٍّ ممدودة ونيّة واضحة بالحصول على إكراميّة.

- الحقائب باتت في القطار يا سيّدي.

أعطاه حارس المنارة العجوز بعض النقود فابتعد الحمَّال وهو يحصيها. تبادل ماكس والعجوز كراي ابتسامةً، كما لو أنّ الأوضاع مبهجة وأنّ تلك الرحلة اعتياديّة.

- لم تستطع أليسيا أن تأتي لأنّها... - بادر ماكس.

- لا داعي. أفهم ذلك. - قاطعه العجوز - أبلغها تحيّاتي. واعتنِ بها.

- سأفعل. - ردَّ ماكس.

صفَّرَ ناظر المحطّة. القطار يوشك على الانطلاق.

- ألن تقول لي إلى أين أنت ذاهب؟ - سأله ماكس، مشيرًا إلى القطار الذي ينتظره على السكّة. ابتسم فيكتور كراي ومدَّ يده إلى الفتى.

- أينما ذهبتُ - أجاب العجوز - لن أستطيع الابتعاد أبدًا عن هنا.

صفَّرَ ناظر المحطّة ثانية. لم يبق إلّا أن يصعد فيكتور كراي. كان مراقب التذاكر ينتظره عند باب العربة.

عانقه ماكس بقوّة وضمَّه حارس المنارة.

- ولكنْ لديَّ شيءٌ لك.

أخذ ماكس علبة صغيرة من يد العجوز. خضَّها برفق: في داخلها شيء يخشخش.

- ألن تفتحها؟

- عندما ترحل. - أجاب ماكس.

رفع حارس المنارة كتفيه، ثمّ اتّجه إلى عربته وأعانه مراقب التذاكر على الصعود. وحين وطأ العتبة الأخيرة، ركض ماكس نحوه فجأةً.

- سيّد كراي! - هتف.

التفت العجوز لينظر إليه مبتهجًا.

- سررتُ بمعرفتك، سيّد كراي. - قال ماكس.

ابتسم له فيكتور كراي للمرّة الأخيرة وربَّتَ بإصبعه على صدره برفق.

- وأنا كذلك يا ماكس. - أجاب - وأنا كذلك.

انطلق القطار ببطء، وتاهت سحابة البخار في البعيد. ظلَّ ماكس واقفًا على الرصيف إلى أنّ بات من المستحيل تمييز تلك النقطة في الأفق. وحينذاك فتح العلبة التي أعطاها له العجوز واكتشف أنّها تحتوي على مفاتيح. ابتسم ماكس. إنّها مفاتيح المنارة.

خاتمة



حملت الأسابيع الأخيرة من الصيف أنباء جديدة عن الحرب التي باتت أيّامها معدودة، على حدّ قول الجميع. افتتح ماكسيمليان كارڤر محلّ الساعات في موقع بالقرب من ساحة الكنيسة، وبعد مدّة قصيرة لم يبق أحدٌ في البلدة إلّا ودخل ذلك البازار الصغير الذي يحوي الأعاجيب. تماثلت إيرينا للشفاء كلّيًّا وبدت أنّها لا تذكر الحادثة التي تعرَّضت لها على سلالم المنزل. وكانت بصحبة أمّها تقوم بنزهات على الشاطئ بحثًا عن قواقع ومستحاثّات صغيرة، وبدأت تضعها في مجموعة خاصّة لتثير حسد رفيقاتها في المدرسة خلال الخريف.

أمّا ماكس فقد ظلَّ وفيًّا لتركة الحارس العجوز، كان يذهب بالدرّاجة عند الغروب إلى بيت المنارة ويشعل حزمة الضوء التي سترشد السفن حتّى بزوغ الفجر. ويصعد إلى القمّة ليتأمّل المحيط من هناك، مثلما فعل فيكتور كراي طوال حياته كلّها تقريبًا.

وفي إحدى تلك الأمسيات، اكتشف ماكس أنّ أليسيا كانت

تعود غالبًا إلى الشاطئ حيث كان كوخ رولاند في الماضي. كانت تأتي بمفردها، تجلس على الرمل، وتسرح نظراتها في البحر، وتمضي الساعات صامتة. لم يعودا يتحادثان مثلما كانا في الأيّام التي أمضياها مع رولاند، ولم تشر أليسيا مطلقًا إلى ما حدث في الخليج تلك الليلة. واحترم ماكس صمتها، منذ اللحظة الأولى. وفي الأيّام الأخيرة من سبتمبر التي تنذر بابتداء الخريف، بدا أنّ ذكرى أمير الضباب تتلاشى نهائيًّا من ذاكرته مثلما يتبدّد الحلم في ضوء الصباح.

وكلّما تأمّلَ ماكس شقيقته من الأعلى، استحضر كلمات صديقه رولاند، عندما باح له عن خشيته من أنّ ذلك الصيف في البلدة قد يكون الأخير بالنسبة إليه إذا ما استُدعِيَ للتجنيد. وآنذاك، وعلى الرغم من أنّ الشقيقين لا يتحادثان تقريبًا، عرف ماكس أنّ ذكرى رولاند وذكرى ذلك الصيف الذي اكتشفا فيه السحر معًا ستبقيان ماثلتَين في ذاكرتيهما وستوحّدان بينهما إلى الأبد.

هذا الكتاب

... حين كنتُ صغيرًا لم أعتد قراءة رواياتٍ مصنَّفةٍ على أنّها «شبابيّة». كانت فكرتي عن روايات اليافعين مطابقةً لفكرتي عن روايات القرّاء أيًّا كانت أعمارهم؛ أعتقد أنّ الحكاية لا تبالي بالفئات العمريّة. ولطالما تملّكني انطباعٌ بأنّ القرّاء الشباب قد يكونون أكثر حنكةً وبصيرةً من القرّاء الكبار، وإذا امتازوا بشيءٍ فهو تقديرهم القليل وتحيُّزهم الأقلّ. فإمّا أن يكسبهم الكاتبُ، وإمّا أنّهم لا يتوانون عن استبعاده. إنّهم جمهورٌ صعبٌ ومتطلّب، لكنّ أحكامهم تعجبني، وأظنّ أنّها عادلة...

... وإنَّ «أمير الضباب» هو الكتاب الأوّل من سلسلة رواياتٍ «شبابيّة»، إلى جانب «قصر منتصف الليل» و«أضواء سبتمبر»، والرواية المستقلّة «مارينا»، ألّفتُها قبل أعوامٍ من إصدار «ظلّ الريح». وقد يتأثّر بعض القرّاء الناضجين بشعبيّة الرواية الأخيرة، فيندفعون لاستكشاف حكايات الغموض والمغامرة هذه، وآمل أن يُعجَبَ قرّاءٌ جددٌ بها فيستهلّون رحلتهم ومغامرتهم بالقراءة مدى الحياة.

كارلوس رويث ثافون





ISBN 978-9933354671
9 789933 354671

الغلاف: سكينة صلوَن